من

روائع البيان النبوي

دراسة أدبية وتحليلية

للدكتور مصطفى عبد الواحد

راجعه وعلق عليه

خادم العلم

عبد الله إبراهيم الأنصاري

من مطبوعات إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر

لسنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

نحمد الله تبارك وتعالى ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائه ورسله ونسأله الهداية والتوفيق وإنه نعم المولى ونعم النصير . وبعد .

فهذه دراسة موجزة لبعض أحاديث صحيحة ، تصور خصائص البيان النبوي وأسلوبه في الهداية والإقناع . . وتأثره بالقرآن في معانيه وألفاظه .

وهي وإن كتبت في الأصل للدارسين المتخصصين . . إلا أنها لا تبعد عن غيرهم من الراغبين في التزود من العلم النافع ، الحارصين على استجلاءِ ملامح الأدب النبوي في شكله ومضمونه .

وقد جاءَ في اختيار هذه الأحاديث الثلاثة عشر ، من موضوعات مختلفة لتبين اطراد الأسلوب التصويري المشرق في بيان من أرسله الله رحمة للعالمين ، وعلمه ما لم يكن يعلم .

وإنّ نفع البيان النبوي لا ينتهي في عصر . . بل هو ممتد التأثير في النفوس والعقول والألسنة . . مادام القرآن العظيم باقياً . . والسنة مفسرة له مبينة لمقصده . . إنه الكلام الذي جمع الله له بين المهابة والحلاوة - كما قال الجاحظ في وصفه لهذا الكلام - وحفَه بالعصمة وأيده بالتوفيق .

وإن تأملنا في نسق هذا البيان الرائع لهدينا إلى الحقيقة التي أجملها الرسول الكريم ﷺ في قوله متحدثاً بنعمة الله عليه : « وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » .

وما أحوجنا في هذا العصر إلى استلهام الدروس من هذا البيان المبارك ، الذي لم يرتق إلى درجته بشر ، مهما بلغ من العلم ، أو سما في درجات الفصاحة والبلاغة . فلتكن هذه الدراسة البيانية حافزاً لمن يقرؤها على المضي في تذوق هذا الجمال البياني البديع .

ومن الله سبحانه العون والتوفيق .

د. مصطفى عبد الواحد

مكة المكرمة في ربيع الأول سنة ١٤٠٣

العاقل . . والأحمق

١ - عن شداد بن أوس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ. وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللَّهِ الأَمَانِيَّ » [١] .

رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه

١ - الألفاظ والأساليب :

الكَيْس : بفتح الكاف وسكون الياء ، خلاف الحمق ، أي استعمال العقل والتفطن للعواقب .

والكيس : كجيد : الظريف العاقل ، يقال : كاس الرجل يكيس كيساً ، إذا عرف عنه العقل وحسن التصرف .

كما يقال : أكاس الرجل فهو مكيس ، إذا ولد له أولاد أكياس .

قال الشاعر :

ولو كنتم لمُكْيِسَةٍ أكاسَتْ ... وكَيْسُ الأم يعرف في البنينا

ولكنْ أمكمُ حمقت فجئتم ... غثاثاً ما نرى فيكم سميناً [٢]

---

(١) رواه أبو داود الطيالسي والإمام أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه وقالوا حديث حسن عن ابن المبارك والعسكري في الأمثال وابن أبي الدنيا في محاسن النفس وأبونعيم في الحلية والطبراني في الكبير وصححه الحاكم في المستدرك عن شداد بن أوس .

(٢) إصلاح المنطق لابن السكيت : ص٢٦٩ تحقيق عبد السلام هارون .

دان نفسه : ملك قيادها وأخضعها لحكم العقل ، وخلصها من العبودية للهوى . يقال : دان له يدين ، إذا كان في طاعته . والدين ، بكسر الدال : الطاعة والذل والقهر والغلبة والحساب . ومنه ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ أي يوم الجزاء والحساب .

وهذا التعبير - دان نفسه - تعبير تصويري ، حيث شبهت النفس بالعدو الذي يجب قهره ؛ لأن الدَّيْنَ إنما يكون لمن يُخشى منه الجموح والانحراف .

ما بعد الموت : الحساب والجزاءُ والحياة الباقية .

العاجز : الضعيف الخانع الذي يرضى بالدنية ، ولا يبغي لنفسه حسن العاقبة .

أتبع نفسه هواها : جعل نفسه تابعة للهوى سائره في أثره . وفي هذه الجملة استعارة مكنية ؛ حيث شبه النفس والهوى بشخصين يسير أحدهما خلف الآخر ويلحقه ، ثم حذف المشبه به وأسند إلى المشبه بعض خصائصه وهو الاتباع .

تمنى : طلب الأماني ، جمع أمنية .

٢ - المعاني والأفكار :

في هذه الجمل القِصار التي تضمنها هذا الحديث الشريف يقفنا ﷺ أمام مقارنة عميقة بين مسلكين يتوزعان البشر وعاقبتين يلقاهما كل منهما ! ويثير فينا نوازع التأمل في سعي الإنسان في هذه الدنيا ، ويلفتنا إلى

حكمة تميز الإنسان عن بقية المخلوقات الأرضية بنعمة العقل ، وإلى مسئولية الإنسان العاقل نحو ما وهبه الله إياه من مواهب وخصائص . . كما يشير إلى الصراع الدائم الذي يواجهه الإنسان بين العقل والهوى ، وتلك هي العقبة الكبرى التي يهيب الإسلام بالبشر أن يوجهوا هممهم إلى اجتيازها . وفي هذا الصراع تظهر حقيقة الإنسان ، ويتحدد إتجاهه بين الخير والشر ، ويتبين اختياره بين الهوى والضلال .

وقد اختار النبي ﷺ بيان هذه المعاني في صورتين مجسمتين ؛ صورة الكيّس العاقل ، وصورة العاجز الأحمق ، حتى تكون الصورتين متقابلتين ، يلمح الإنسان في المقارنة بينهما طريق الرشاد .

وهما نموذجان موجودان في كل زمان ومكان ، فليس الناس سواءً في الاتجاه ، وليسوا سواءً في الأهداف والغايات ، وفي السعي لهذه الأهداف والغايات . كما أنهم يختلفون في مدى الإبصار ، فمنهم من يقف قانعاً عند حدود المادة ومتطلبات هذه الحياة الدنيا ، ومنهم من يمد بصره من وراء ذلك ، فيرى الآخرة بكل ما فيها من أهوال وشدائد ، وبكل ما فيها من متاع ونعيم ، فيختار لنفسه ويعمل لآخرته ولا يقنع بهذه الحياة الزائلة ، بل يطمح في الخلود إلى دار النعيم .

٣ - طريقة التصوير :

تتضح في هذا االحديث الشريف نماذج من التصوير البلاغي الذي يفيض به الحديث الشريف . فهو كما قدمنا مقارنة بيين نموذجين من

النماذج الإنسانية لكل منهما ملامحه وخصائصه .

فاختيار كلمة الكيِّس للتعبير عن المؤمن العاقل اختيار رائع ، لتوحي بما يفهم من هذه الكلمة من ملامح الظرف والذكاء والغلبة والفوز . وفي مقابلها اختيار كلمة العاجز بدلاً من الفاسق أو العاصي أو غيرها ؛ لتوحي الكلمة بمعاني العجز المنفرة ، المصور لنموذج إنسان يعرفه الناس وينفرون منه . وجاءت جملة « دَانَ نَفْسَهُ » لترسم لنا صورة مجسمة لامتلاك زمام الغرائز وقهرها ، وتوجيه قوى البدن إلى الطاعة والخضوع لله ، إلى جانب ما يدل عليه الفعل « دَانَ » من قهر العدو ؛ لأن النفس أمارة بالسوء ، ولأنها - كما جاء عن بعض التابعين : - أعدى أعداء الإنسان .

أما التعبير عن الآخرة بأنها « مَا بَعْدَ الْمَوْتِ » ففيه تهويل لها وتعظيم من شأنها . وفيه إبهام يدفع الإنسان إلى التطلع والمعرفة .

وفي مقابل تلك الصورة الواضحة للكيس ، نرى العاجز وهو يطلق نفسه خلف هواه ، كما ينطلق الحيوان وراء المرعى ، ثم هو لا يكلف نفسه مشقة المخالفة أو الجهاد لهواه ، ومع هذا العجز وتلك الذلة ، يتمنى على الله أن يدخله الجنة ، وأن يساويه بغيره من المجاهدين العقلاء . وتأبى سنة الله أن تسوي بين المسلمين والمجرمين ، كما جاء في قوله سبحانه :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [1] .

---

(١) سورة الجاثية : ٢١ .

٤ - التأثر بالقرآن :

نرى في هذا الحديث - كما نرى في غيره من الأحاديث - تأثراً واضحاً بالقرآن ، في معانيه وألفاظه .

أما المعاني ؛ فإننا نجدها مستقاة من آيات كثيرة في القرآن كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وآثَرَ الحَيَوٰةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (١) .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ واتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَيٰهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢) .

وهكذا نرى الحديث يصور معنى أصيلاً من معاني القرآن . وأما الألفاظ فنرى فيها أثر الأسلوب القرآني ؛ فقول الحديث : « أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا » مقتبس من مثل قول الله سبحانه : ﴿ وَاتَّبَعُوآ أَهْوآءَهُمْ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ (٤) .

وقول الحديث « وَتَمَنَّىٰ عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيَّ » منظور فيه بقول الله سبحانه : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ (٥) . وهذا يؤكد أن القرآن

---

(١) سورة النازعات : ٣٧ - ٤١ .
(٢) سورة الحشر : ١٨ ، ١٩ .
(٣) سورة القمر : ٣ .
(٤) سورة صٓ : ٢٦ .
(٥) سورة النساء : ١٢٣ .

بألفاظه ومعانيه كان النبع الأول للحديث الشريف ؛ فقد كان ﷺ أول من تلقى هذا القرآن وخالط قلبه وجرى به لسانه ، فليس عجيباً أن يكون القرآن المورد العذب الذي تلقى منه الرسول الحكمة وفصل الخطاب ، كما قال سبحانه : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾[1] .

---

(١) سورة النساء : ١١٣ .

أقربكم من رسول الله ﷺ !

عن جابر عن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجَالِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقاً ؛ الْمُوَطَّؤُونَ أَكْنَافاً الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ . وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ »[1] .

أخرجه الترمذي والإمام أحمد

١ - الألفاظ والأساليب :

الأكناف : جمع كنف وهو الجانب . والموطأ : اللين المذلل .

وفي قوله : « الْمُوَطَّؤُونَ أَكْنَافاً » كناية بديعة عن التواضع ولين الجانب وسهولة الخلق .

قال ابن السكيت في كتابه - إصلاح المنطق : وقد كنف الإبل يكنفها : إذا عمل لها كنيفاً ؛ وهو الحظيرة من الشجر . وكنفت الرجل :

---

(١) جاءت روايه الترمذي « إِنَّ مِنْ أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً وأن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون . قالوا يارسول الله ما المتفيقهون قال : المتكبرون

رواه الترمذي عن جابر وقال حديث حسن غريب

حطته [1] .

الثرثارون : جمع ثرثار وهو كثير الكلام . وهو مأخوذ من العين الغزيرة الماء التي يقال لها : ثرة ، وثرارة ، وثرثارة ، تشبيهاً للإنسان الكثير الكلام بالعين التي يفيض منها الماء بغزارة .

المتشدقون : الذين يملأون أشداقهم بالكلام ؛ إظهاراً للبلاغة وتكلفاً للفصاحة .

المتفيهقون : الذين يتظاهرون بالعلم ويدعون المعرفة . وأصل الفهق الامتلاء ، كما قال الأعشى :

تروح على آل المحلَّق جفنةٌ كجابيةِ الشيخ االعراقي تَفْهَقُ

قال في القاموس : فهق الإناءُ كفرح فهقاً - بسكون الهاء وبتحريكها بالفتح أيضاً - امتلاء . وبئر مفهاق : كثيرة الماء . وتفيهق في كلامه : تنطع وتوسع ، كأنه ملأ به فمه [2].

٢ - المعاني والأفكار والتصوير :

أراد النبي صلوات الله عليه وسلامه أن يدعو المؤمنين إلى مكارم

---

(١) إصلاح المنطق : ص٢٦٠ .

(٢) أعظم تفسير لكلام رسول الله ما فسره رسول الله بالذات فعندما سئل رسول الله برواية الترمذي عن معنى المتفيقهون فقال المتكبر ون وهذا المعنى أقوى أثراً وأعظم وقعاً لأن المتكبر المتعاظم في نفسه والممتنع عن قبول الحق معاندة فلو اقتصرنا على معنى التفيهق هو التنطع بالكلام والتوسع كأنه يملأ به فمه فأصبح تكراراً لمعنى المتشدقون الذين يملأون أشداقهم بالكلام إظهاراً للبلاغة والمعرفة أما المتكبر فهو الذي يبر ز أكثر من حقيقته في جسمه وكلامه ومعرفته مع امتناعه عن قبول الحق معاندة .

الأخلاق ، وأن يزين لهم طريقها الجميل ، فأبرز لهم عاقبة الخلق الكريم ومغبة الخلق السيء ، في هذه الصورة المحسوسة المؤثرة . نيل محبة الرسول والقرب منه في دار النعيم الخالد لذوي الخلق الحسن ، والوقوع في مهاوي العذاب والبعد عن الرسول للذين لم تهذّب طباعهم ، ولم تحسن أخلاقهم ، ولم يعرفوا حق الناس عليهم . . وياله من أسلوب تصويري بديع ذلك الذي صور به النبي صلوات الله وسلامه عليه كلاً من الفريقين ، وعاقبة كل منهما : أصحاب الخلق الكريم ، وأصحاب الخلق الذميم .

أما أصحاب الخلق الكريم فلم يصفهم النبي ﷺ بحسن الخلق فحسب ، وإنما مثّلهم لنا في هذه الصورة الحية التي تحدد علاقتهم بالناس ، ومعاملتهم لهم ومشاعرهم نحوهم ؛ فأكنافهم - وهي جوانب حياتهم ووجوه صلاتهم بالناس - موطأة ممهدة ليس فيها كبرياء ولا تعاظم ، وليس فيها صولة باطلة ، بل هي الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين ، التي دعا إليها القرآن . واتضحت الصورة وضوحاً تاماً بقوله ﷺ : « الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ » فهي أُلفة متبادلة ، وهو اتصال شعوري بينهم وبين إخوانهم المؤمنين ، لا جفاء بينهم ولا بغضاء .

وإذا كانت تلك صورتهم ، فكيف كانت منزلتهم في ميزان الحق ؟ وكيف تكون درجاتهم يوم القيامة ؟ .

هذا ما يصوره النبي صلوات الله وسلامه عليه في قوله « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَوْمَ الْقِيامَةِ » .

أما الحب من النبي ﷺ فهو ومضة شعورية يضيء لها قلب كل مؤمن ، ويسعى إليها كل من يرجو المجد الحق في الدنيا والآخرة . وإذا عرف المؤمنون أن حسن الخلق يمنحهم حب الرسول ﷺ فأخلق بهم أن يسارعوا إليه ويتنافسوا فيه . وأن حبه صلوات الله وسلامه عليه لوارف الظلال يسع الأتقياء الأبرار جميعاً في رحابه .

وهكذا نرى العاطفة تعمل عملها في التوجيه والتربية في الحديث الشريف ، فليس التوجيه فيه أوامر تلقى ، ولا نهياً يعلن ، ولكنه تحريك للعاطفة وامتلاك للشعور ، يثير في الإنسان سمو النظرة ، وعلو الهمة ، والمنافسة في الخيرات .

وأما قرب المجلس منه ﷺ فهو تصوير للجنة ونعيمها ، واختلاف درجات النعيم فيها كما يقول الله تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ ﴾ [1] . فمن ذا الذي يجد سبيلاً إلى القرب من درجة النبي ﷺ في الجنة ولا يسلك هذا السبيل الذي دونه كل سبيل .

والخيال يعمل عمله هنا ، فيتصور ما في الجنة من تزاور بين أهلها ، وما يمكن أن يجده المؤمن من متعة روحية سامية في القرب من مجلس

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٣ .

الرسول ﷺ وفي الجنة .

وبهذا التصوير الدقيق زين لنا رسول الله ﷺ سلوك طريق الأخلاق الكريمة ، ورغبنا في بذل كل جهد في سبيل نفع الناس وتقديم العون إليهم ، وأثار في كل قلب مشاعر المنافسة في القرب من مجلسه والظفر بحبه ، حتى تتسابق الهمم وتتفاوت الدرجات .

وهل فوق هذا ، غاية يبلغها بشر في التأثير عن طريق التصوير ! .

وأما أصحاب الخلق المذموم ، فقد وصفهم النبي صلوات الله عليه ذلك الوصف البارع الذي يختار الملامح المميزة التي تدل على ما وراءها .

فهؤلاء الذين يبغضهم النبي ﷺ أشد البغض ، والذين يبعدون عنه يوم القيامة أشد الإبعاد ، ما ملامحهم ؟ وما صفاتهم التي هَوَت بهم إلى الحضيض حين ارتفع غيرهم إلى ذروة المجد والظفر ؟ .

إن النبي ﷺ يقدمهم في هذا الإطار المحدد الذي يحيط بأبعاد الصورة كاملة ويكشف خفاياها . . إنهم أولئك الثرثارون . . المتشدقون . . المتفيهقون . .

صفات ثلاث توضح الملامح ، وتكشف عن خفايا تلك النفوس التي استحقت من رسول الله البغض - والرسول الكريم لا يبغض إلا في الله [1] - وإذا بغضهم هؤلاء فهم إذن أبعد ما يكونون عنه ﷺ إن أولئك

---

(١) لأن هذه الصفات يُبغضها الله والمبغوض من الله بعيداً عنه ورسول الله خليفة الله في الأرض فهم بعيدون عنه تبعاً لبعدهم عن الله .

- كما يظهر من وصف النبي لهم بهذه الصفات - قوم خَوَت قلوبهم من الإخلاص ؛ فهم لا ينظرون إلاَّ إلى الناس ، ولا يعلمون إلاَّ رياءً وسمعةً - إن كان لهم عمل - ولكنهم كما يظهر من هذه الأوصاف لا يعلمون شيئاً ذا بال ، وإنما يكتفون بالقول بدلاً من العمل ، وبالادعاء بدلاً من الحقيقة . فهم لذلك يكثرون القول ، وأكثره كذب أولغو . ومن هنا جاء وصفهم بأنهم « ثرثارون » يفيض منهم الكلام دون وعي ، كما يتدفق الماء من العين الغزيرة ، ولكن شتان بين ما يصدر من هؤلاء من قول وما يفيض من العين من ماء . فهؤلاء يتكلمون بما يضر لا بما ينفع ، أما العين فإنها تتدفق بالماء ، الذي يحيي الإنسان والحيوان والنبات ، وهؤلاء لا يقفون عند حد كثرة الكلام بغير نفع - وكفى بها خطيئة - وإنما يضيفون إليها خطيئة أخرى ؛ وهي التصنع في الكلام ، وتكلف الفصاحة . والادعاء والتكلف لا يدل على نفس سوية أبداً ، وإنما يدل على نفس مريضة ، تعاني الغرور والكبرياء الكاذب ، وتريد أن تشعر بالتفوق على غيرها بغير جهد ولا استحقاق . .

لقد تبين من هذين الوصفين أوصاف عدة منها :

العجز والتواني عن العمل ، والقعود عن الجهاد ، والتكبر والغرور والرياء . .

وكلها خطايا كبار تقعد بأصحابها عن بلوغ درجات المؤمنين الكاملين . فلله ما أدق اختيار هذين الوصفين ، وما أعجب دلالتهما على ما

وراءهما من نعوت ، كأنهما مفتاحان يفضيان إلى معرفة ما وراء الأبواب والستور . .

فكيف وقد أضيف إليهما وصف ثالث يعمق الصورة ويزيدها جلاء ووضوحاً :

إنهم كذلك « المتفيهقون » وما أدقها من لفظة تأتي في مكانها لتبرز ما خفي من سمات أو استتر من صفات .

إنها تصور أولئك الأدعياء على حقيقتهم ؛ إنهم فارغون من كل شيء . . ولكنهم يدعون الامتلاء من كل شيء . فما أعجب المفارقة بين الحقيقة والأدعاء ، وما أجدر ذلك الجاهل الذي يدعي العلم ، أو العيي الذي يدعي الفصحاة ، بالسخرية والازدراء .

وبعد ، فهل بقي شيء من جوانب هذه النفوس البغيضة لم نراه واضحاً للعيان ، بهذه الكلمات الثلاث التي وصف بها النبي ﷺ أصحاب الأخلاق الذميمة ؟! . وهل يبقى بعد ذلك شك لدى أي مسلم في أن طريق الخلق الكريم أولى بالاتباع والإثار بعد تلك المقابلة بين الطريقين والمقارنة بين العاقبتين ؟! . إنها جوامع الكلم التي خُص بها رسول الله ﷺ إلهاماً من الله وتعليماً ، وآية يريها لقومه بعد أن أتصل قلبه بالوحي ، وبعد أن تلقى هديَ السماء .

ولا يفوتنا أن نرى في هذا الحديث كذلك استمداد من القرآن وسلوكاً لنهجه : فقوله ﷺ : « الْمُوَطَّأُونَ الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ » . مستمد في

معناه من قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [1] . فهؤلاء لا تلين أكنافهم إلا لإخوانهم المؤمنين ، أما أعداؤهم فلا يرون منهم إلا البأس والجفاء .

وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى في صفة رسول الله ﷺ وأصحابه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [2] .

أما بغض الثرثارين والمتشدقين والمتفيقهين فهو معنى قرآني ورد في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [3] . وقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [4] . وقوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ [5] . وقوله في صفة المنافقين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [6] .

وهكذا نرى أن الحديث النبوي لا يخرج في معانيه عن حقائق القرآن ؛ فإن الحديث النبوي إنما هو بيان للقرآن واستيحاء لمعانيه ، كما قال الرافعي في وصفه للحديث الشريف : وإذا أراك القرآن أنه كلام السماء للأرض ، أراك هذا - أي الحديث النبوي - أنه كلام الأرض بعد السماء .

---

(١) سورة المائدة : ٥٤ .
(٢) سورة الفتح : ٢٩ .
(٣) سورة الصف : ٢، ٣ .
(٤) سورة القصص : ٥٥ .
(٥) سورة لقمان : ١٨ .
(٦) سورة المنافقون : ٤ .

الجنة تحت ظلال السيوف

عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ واسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنْ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ » .

ثم قال النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ مُنَزِّلَ الْكِتَابِ ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ ، اهْزِمْهُمْ وانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ » .

رواه الشيخان

١ - موضوع الحديث :

هذه خطبة قصيرة من خطب النبي ﷺ في غزوة من غزواته ، خاطب بها جنود الجيش الإسلامي من الصحابة رضوان الله عليهم ، وأراد بها بعث الشجاعة والحماسة في القلوب ؛ حتى تثبت الأقدام ، ويتحقق لكل منهم إحدى الحسنيين ، إما النصر وإما الشهادة .

وتبدأ هذه الخطبة بالنداء : « أَيُّهَا النَّاسُ » . وذلك لإثارة الانتباه ، وإعداد الآذان لتستمع ، والقلوب لتعي .

وفي ذلك تأثر بالقرآن في بدء آياته ، حين يريد إثارة انتباه المخاطبين ؛ وبدا الأمر أو النهي أو الإعلام بالنداء .

كقوله : ﴿ يَآ أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [1] .

وقوله : ﴿ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوآ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلٰوةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ [2] . وغير ذلك كثير في القرآن .

وقد يقال : لماذا قال النبي ﷺ في هذا النداء : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » ولم يقل : ياأيها الذين آمنوا ، كما هي طريقة القرآن في خطاب المؤمنين ؟ . والجواب : أن النبي ﷺ في هذه الغزوة كان يخاطب المؤمنين فقط ، فلا حاجة به إلى أن يخص من بينهم أحداً ، لأنهم ليس فيهم مؤمن وغير مؤمن ، أما القرآن فقد كان يتلى ويسمعه الجميع ؛ المؤمن والكافر ، ومن هنا كان في القرآن خطاب عام للناس جميعاً ، وخطاب خاص بالمؤمنين المصدقين . وأيضاً فإن موضوع هذه الخطبة الدعوة إلى عدم تمني لقاء العدو ، والأمر بالثبات عند لقائه . ولما كان في فطرة الإنسان الفزع عند الحرب ، وكراهة القتال وحب السلامة ، فقد نادهم النبي ﷺ باسم الإنسانية ، الذي يذكر بطبيعة الإنسان ، وأن القتال كرهٌ له . ولكن المؤمن حين يجدّ الجد ، يقاوم نزعات الخوف ، ويصبر في ساحة الوغى ، واثقاً بالنصر أو الشهادة .

وفي قوله تعالى : « لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ » . إقرار

---

(١) سورة البقرة : ٢١ .

(٢) سورة المائدة : ٦ .

للفطرة البشرية بأخطار الحرب وكراهية القتال . فليس القتال مقصوداً لذاته ، لأنه - كما قرر القرآن - مكروه في الطباع . قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ (١) .

وفي ذلك أبلغ الرد على أولئك المفترين الذين يزعمون أن الإسلام قد انتشر بالسيف . كيف ؟! وهذا القرآن يجعل القتال مشروعاً لدفع الظلم ورد العدوان ، في قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ﴾ (٢) . وهذا النبي ﷺ ينهي أصحابه عن تمني لقاء العدو ، بما يوحي أن المؤمن يقاتل مضطراً إلى القتال ؛ لكسر شوكة الطغيان ، ولدفع صولة الكفر ، وليست شهوته في القتال لذات القتال . فالإسلام بذلك دين السلام ، الذي يجعله طابع المؤمنين وشعارهم ، وغايتهم في الدنيا والآخرة .

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يومَ يَلْقَونَهُ سَلاَمٌ ﴾ (٣) .

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة البقرة : ٢١٦ .
(٢) سورة الحج : ٣٩ ، ٤٠ .
(٣) سورة الأحزاب : ٤٤ .
(٤) سورة الأنعام : ١٢٧ .

وبعد أن ينهي النبي ﷺ أصحابه عن لقاء العدو ، يأمرهم بالصبر عند لقائه ؛ وذلك حينما لا يكون بد من القتال ؛ حين يتبجح الكفر ويحاول هدم حصون الإيمان .

وهنا يكون الحرب أجدى على الإنسانية من السلم ؛ حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

ويأتي هذا الأمر النبوي موجزاً موحياً بالمعاني الكثيرة .. « فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا » . بحذف متعلق الفعل - اصبروا - الذي يقدره الزهن ؛ اصبروا على الجراح .. اصبروا على المكاره .. ثبتوا أقدامكم في ساعة الروع .. اصبروا حتى يتحقق لكم النصر أو الشهادة .. وغير ذلك مما توحي به كلمة « اصبروا » هكذا مطلقة عن التقيد بشيء .

وتلك أيضاً مستقاة من نبع القرآن الكريم حيث يقول تعالى : ﴿ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [1] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [2] .

وهذا هو المعنى الذي أخذه الشعراء الإسلاميون بعد في مثل قول قطري بن الفجاءة :

---

(١) سورة آل عمران : ٢٠٠ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤٦ .

أقــول لها وقد طـارت شُعاعاً من الأبطال ويحَكِ لن تُراعي
فإنك لو سـألتِ بقـاءَ يومٍ على الأجلِ الذي لَكِ لن تُطاعي
فصبراً في مجال الموتِ صبراً فَمـا نيْل الخلود بمستطاع

وإذا كان الصبر ثقيلاً على النفس ، والمذاق ، فإنه بحاجة إلى حافز يحفز عليه ، ويهوّن على النفس سلوك طريقه . وهل هناك حافز أعظم من الجنة التي يجعلها النبي ﷺ في هذا الحديث تحت ظلال السيوف ؟! . وهو تصوير يبلغ غاية في الإثارة والتشويق ، كقوله ﷺ : « أَلْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الأُمَّهَاتِ » أي أن إدراك نعيم الجنة إنما يتحقق بالجهاد ، الذي يستلزم أن يغشى المسلم المعارك ، وأن تظله السيوف في ساحة الموت . وأي مسلم يعلم أن الجنة تحت ظلال السيوف ، ثم يقصر عن الجهاد ، أو يهاب الموت في سبيل الله ؟! .

ونحن نرى هنا أن الفرق واضحاً بين أثر التصور البلاغي ، وبين الخبر المجرد عن التصوير . فلو قال النبي ﷺ : واعلموا أن للجهاد ثواباً كبيراً يدخل صاحبه الجنة .

فهل كان يبلغ ذلك الأثر الذي يبلغه قوله : « وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ »؟! .

إن هذه الكناية الرائعة قد أضافت على المعنى حياة وحركة ، وربطت رباطاً لازماً بين الجهاد والثواب . ولم تفد مجرد حصول الثواب ، بل إنها صورت الجنة حاضرة قريبة دانية من المجاهد ، ما بينه وبينها إلا أن يقاتل

... إحدى الحسنيين - فيدخل الجنة .

ثم انظروا إلى ما ختم به النبي ﷺ تلك الخطبة البليغة الموجزة من خطب الجهاد . أنه ختمها بالدعاء . الدعاء استمداد النصر من السماء ، بعد أن أدى المجاهدون ما عليهم من واجبات ، وبعد أن بذلوا ما يملكون من جهود . فإذا أدى المؤمن ما وجب عليه ، وسلك طريق الأسباب الممكنة ، فإنه يحق له أن يرفع يديه إلى السماء ويبتغي من الله العون . أما إذا تخاذل وتهاون فما يجوز له أن يدعو ؛ لأنه بخل بما يملك ، وأضاع ما يجب عليه أن يحفظه .

وهذه فائدة نشير إليها لنذكر المسلمين بما يجب عليهم نحو دينهم ودنياهم . ثم نقف أمام الخصائص البيانية في هذا الدعاء النبوي الشريف .

وأول ما يستوقفنا فيه هو عنصر الاختيار اللطيف ، إذا كان لابد من الاختيار في هذا المقام . إنك تستطيع أن تدعو الله سبحانه بأي اسم من أسمائه الحسنى ، أو صفة من صفاته ، ولكن البلاغة إنما تكمن في الاختيار الذي يناسب مقتضى الحال . ونحن هنا أمام صفات ثلاث وصف بها النبي ﷺ ربه سبحانه في هذا الدعاء : منزل الكتاب - مجري السحاب - هازم الأحزاب - فنرى عنصر القصد إلى الإيحاء والتأثير في هذا الاختيار . . أن النبي ﷺ يستنزل النصر من السماء ، ويريد أن يلقي الثقة بالنصر ، ويبث الأمن في قلوب أصحابه ، فهو يذكرهم بآيات الله ، ودلائل

قدرته ؛ حتى تطمئن منهم الأفئدة وتقوى العزائم .

إن الله سبحانه مولى الذين آمنوا ، وإن الكافرين لا مولى لهم . وهو سبحانه منزل الكتاب - وهو القرآن الكريم - على محمد ﷺ ، وكفى بها نعمة ورحمة . وهؤلاء المجاهدون هم أتباع هذا النبي الذي نزل عليه هذا الكتاب ، فأخلق بهم أن يكونوا في حمى الله سبحانه ، كما قال في كتابه : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (١) .

وهو عز وجل مجري السحاب بالمطر - وتلك من دلائل قدرته ومفاتيح غيبه - كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾ (٢) .

وإذا كان الغيث حياة للأرض بعد موتها ، فإن الكتاب الذي نزل على محمد ﷺ حياة للقلوب ونور . وهذا هو الجامع بين الصفتين - منزل الكتاب ومجرى السحاب - فهما تدلان على رحمة الله بعباده ، وإحسانه المتجدد إليهم .

ومن رحمته سبحانه بالمؤمنين وبالبشر جميعاً أنه هزم الأحزاب ؛ وذلك عندما أحاطوا بالمدينة في غزوة الخندق ، وكانوا يريدون اجتثاث الإسلام من قاعدته وإطفاء نوره ، فردهم الله بقدرته ، كما سجل ذلك القرآن في قوله سبحانه : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٧ .

(٢) سورة لقمان : ٣٤ .

الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِياً عَزِيزاً * وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِم وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ﴾ (١) .

ولما كانت تلك آية خالدة من آيات النصر الإلهي ، ودافع الله عن عباده الذين آمنوا ، فقد ناسب المقام أن يذكر بها النبي ﷺ أصحابه حتى يأنسوا إلى ذلك النصر ، ويتحققوا صدق وعد الله .

وإذا رأينا التناسب في المعنى والترابط في الدلالة بين هذه الأوصاف الثلاثة ، فإننا نرى كذلك التلاؤم الصوتي والتناسب في الإيقاع بين هذه الجمل الثلاث : منزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب . وليس الأمر توقفاً في الفواصل فحسب حتى يقال : إنه إثار للسجع . فقد رأينا أن الترابط المعنوي هو الذي جمع بين هذه الأوصاف ، بل إن النغمة الصوتية تبدأ هادئة متوافقة في الجملتين الأوليين : منزل الكتاب ومجري السحاب ، ثم تشتد في الجملة الثالثة : هازم الأحزاب ؛ حيث تناسب التأثر العاطفي ، وبلوغ الغاية في التضرع والجوء إلى الله ، وبعدها يأتي الدعاء موجزاً بليغاً واضحاً لا تقعر فيه ولا إغراب ، فهو كلمتان فقط : « اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ » .

وبعد : فأي أثر نتصوره لتلك الخطبة ، التي تمثل خصائص البلاغة النبوية واضحة جلية ، ولا تقاس بها خطبة حربية في التاريخ الإنساني ؟ .

---

(١) سورة الأحزاب : ٢٥ ، ٢٦ .

إ، ذلك الأثر هو ما سجله التاريخ من انتصار المؤمنين ، ومن ارتفاع راية الإسلام في ذلك العهد المجيد . والتاريخ في ذلك أصدق شهيد .

بعضهم يهلك بعضاً

عن ثوبان رضي الله عنه ، النبي ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ زَوَىٰ لِيَ الْأَرْضَ ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا . وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زَوَىٰ لِيَ مِنْهَا . وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنَ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ . وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَلَّا يُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ، وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ . وَإِنَّ رَبِّي قَالَ لِي : يَا مُحَمَّدُ ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ . وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَلَّا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ ، وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ ؛ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا ، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً »[1] .

(رواه مسلم في صحيحه كتاب الفتن حديث رقم ١٩)

١ - الألفاظ والأساليب :

زوى الشيء : جمعه وقبضه ، والمراد أن الله سبحانه أرى رسول

---

(١) هذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده ومسلم والترمذي وأبو داود وقالوا حسن صحيح وابن ماجه وأبو عوانة أما غير رواية مسلم فيه زيادة وهي : « وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين إذا وضع في أمتي السيف لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة ولا تقوم الساعة حتى تلحق القبائل من أمتي بالمشركين وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان ، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله » .

الله ﷺ أطراف الأرض التي سيصل إليها نور الإسلام .

ملك أمتي : قوامة الأمة الإسلامية وارتفاع راية الإسلام في المشارق والمغارب .

وأعطيت الكنزين : أي ملك كسرى وقيصر ، فهي كناية عن موصوف .

السنة العامة : القحط والجدب الذي يسبب المجاعة التي تعم الناس جميعاً .

يستبيح بيضتهم : البيضة : الحوزة التي تحب حمايتها ، وساحة القوم

واستباحتها : انتهاكها واستحلال حرماتها .

من بأقطارها : من يعيشون في أقطار الأرض . أي الناس ، فهي كناية عن موصوف .

يسبي : يأسر . يقال : سبي العدو سبياً وسِباءً - بكسر السين - إذا أسره كاستباء . ويقال للرجل الأسير سَبِيّ - بفتح السين وكسر الباء وتشديد الياء - ويقال ذلك للمرأة أيضاً .

٢ - المعاني والأفكار

هذا الحديث من دلائل نبوته ﷺ . إذ هو إخبار بالغيب الذي أطلعه الله عليه و حققته الأيام وشهد بصدقه التاريخ .

وقد قال ذلك ﷺ في وقت كان الإسلام فيه موضع الهجوم وهدف العدوان ، وكان المسلمين حينئذ يعيشون في ضيق وجهد . . وما كان أحد

يتصور بالعقل أو الاجتهاد في النظر أن أمر الإسلام في الدنيا سيصير إلى ما صار إليه بعد سنوات معدودة من وفاة النبي ﷺ ، إذ انتشر الإسلام في الأرجاء ، وارتفعت راياته خفاقة فوق قلاع ، كانت من قبل حصون الشرك والوثنية .

وما كان أحد كذلك يقدر بعقله أو نظره ، أن أوضاع الحياة المادية للمسلمين ستتغير هذا التغيير العجيب ، أو أن كنوز الدنيا ستفتح عليهم هذا الفتح ، الذي جعل المال يفيض عن الحاجات ، بعد أن كانوا من قبل يقاسون شظف العيش وشدة الحياة . ومن هنا تبدو المعجزة الواضحة في هذا القول النبوي الكريم .

إن الله جمع لرسوله ﷺ أطراف الأرض ، حتى نظر إلى مشارقها ومغاربها ؛ فهي رحلة روحية خاصة ، استشرف فيها النبي ﷺ إلى مستقبل دينه ، وإلى عاقبة أمته ، في وقت كانت فيه الجزيرة العربية لمّا تُسلِم بعدُ جميعاً ، فرأى دين الإسلام ينتشر في المشارق والمغارب . .

وأن أمته – التي تحمل لواء الإسلام – سترث ملك أكبر دولتين في العالم – في ذلك الحين – وهما دولة الفرس ودولة الروم . .

وإنها لقولة عظيمة ، لو لم تكن صادرة من نبي كريم يأتيه الوحي من السماء ، فمن ذا يستطيع أن يتصور في ذلك الزمان – أن العرب – وهم من كانوا قلة وضعفاً – يرثون ملك فارس والروم ؛ وهم من كانوا قوة وعدداً .

والقرآن يشير في سورة الأحزاب إلى قوع هذا القول النبوي على

المنافقين ، الذين كانوا يعجبون ، حين يقارنون بين الواقع الذي يرونه والوعد الذي يسمعونه ؛ وذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ [1] .

وفي السيرة أنهم كانوا يقولون : يعدنا محمد بكنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يؤمن على نفسه أن يذهب إلى الخلاء وحده !! .

ولكن هذا الوعد قد تحقق ، كما أخبر به النبي ﷺ ؛ فانتشر الإسلام في المشارق والمغارب ، ولم يخل من نوره إقليم من أقاليم الأرض ، وورثت الأمة الإسلامية ملك كسرى وقيصر ، وأنفقت كنوزهما في سبيل الله ، كما أخبرنا النبي ﷺ في حديث آخر .

ذلك عن النصر للدين والتمكين للأمة ، وقد كانا كما قال .

ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد ، بل إن الرؤية النبوية لتمتد إلى آفاق أبعد وأبعد . . فكيف تكون حياة هذه الأمة المنتصرة على مر الأجيال ؟ . وهل تبقى دائماً ممكّنة في الأرض ، متغلبة على الأعداء ؟ . أم تصيبها الهزائم ويعروها الانكسار ؟! .

وهل يصيبها من الهلاك العام ما أصاب بعض الأمم السابقة التي استؤصلت شأفتها واقتلعت جذورها ؟! .

إن رأفة النبي ﷺ ورحمته بأمته ، جعلته يتطلع إلى هذا المستقبل البعيد ويأخذ لأمته من عفو الله ورحمته ما تصحبها بركته ويلازمها نفعه إلى

---

(١) سورة الأحزاب : ١٢ .

يوم الدين . .

لقد سأل ﷺ ربه لأمته أمرين :

١ - ألا يهلكم بسَنَة عامة ؛ أي لا يصابوا بما يهلكهم جميعاً ؛ لتظل هذه الأمة في الدنيا على امتداد التاريخ ، تستمسك برسالة الإسلام وتؤدي واجبها نحو الإنسانية : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [1] .
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَىٰ النَّاسِ ﴾ [2] .

٢ - ألا يسلط عليهم عدواً أجنبياً ؛ فيستحل حرماتهم ويسومهم الخسف . وهذا ما أفهمه من قوله ﷺ : « مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ » . وهو قول حكيم يصدقه تاريخ الأمة الإسلامية .

وقد أجاب الله سُؤْل النبي ﷺ وأعطاه طلبته . وجعل من قضائه - الذي لا يرد - لهذه الأمة ألا يصيبها الأمران اللذان سأل النبي ﷺ ربه أن يحمي الأمة منهما . فلم تصب هذه الأمة سنة عامة ، ولم تهلك بعذاب شامل .

كذلك ما تغلب عليها عدو خارجي إلا إذا كان هناك في سلوك المسلمين ، وعلاقة بعضهم ببعض ، ما يفتح السبيل أمام الغزاة الطامعين . وتلك حقيقة تاريخية يمكن إدراكها بوضوح في كل الأجيال . .

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠ .
(٢) سورة البقرة : ١٤٣ .

فما استطاع التتار أجتياح الخلافة العباسية في بغداد ، إلا بتدبير داخلي من بعض الفرق الإسلامية . مثلاً في مؤامرة الوزير ابن العلقمي الرافضي - الذي كان وزيراً لآخر خليفة عباسي - وكان يهيء السبيل أمام التتار لإسقاط الخلافة العباسية ، انتقاماً لجماعته .

وما استطاع الأعداء - في أي عصر - ضرب الأمة الإسلامية في أي جزء من أجزاء وطنها - لتمتد في المشارق والمغارب - إلا بعد صراع المسلمين بعضهم مع بعض ، وتفكك روابطهم ، واضطراب صفوفهم . وهنا يصيبهم الفشل وتذهب ريحهم ، طبقاً للقانون الإلهي المتمثل في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [1] .

فكأن المسلمين بتنازعهم ، وصراع بعضهم للبعض ، يهلكون أنفسهم وينهزمون قبل أن يهزمهم العدو .

وهذا ما يصدقه التاريخ الحديث والقديم لهذه الأمة ، مما لا مجال هنا لبسطه واستقصائه .

والحديث يؤكد أن هلاك هذه الأمة ، وما يصيبها من كوارث ، لا يكون إلاّ من داخلها ، وبسبب ما يقع بين صفوفها .

وهذا معنى التأكيد المستفاد من قوله ﷺ « وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً » .

---

(١) سورة الأنفال : ٤٦ .

وهكذا نرى في هذا الحديث بياناً لسنة الله في هذه الأمة ، ورسماً لطريقها الذي لا تحيد عنه ، إلى جانب ما فيه من دلائل النبوة والإخبار الصادق عن الغيب بوحي من الله .

٣ - أسلوب التصوير

يتضح في الحديث إيثار التصوير على التقرير ، لأن التصوير البلاغي أعمق أثراً في النفس ، وأجمل وقعاً في الأذن .

فقوله : « إِنَّ اللَّهَ زَوَىٰ لِيَ الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا » يصور لنا هذه المشارق والمغارب ، التي سيبلغها صوت الإسلام ، وسترتفع عليها رايته . ثم بعدها يقول : « وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زَوَىٰ لِيَ مِنْهَا » . أي سينتشر نور الإسلام في المشارق والمغارب . فلو أن الحديث بدأ بقوله : إن ملك أمتي سيبلغ المشارق والمغارب ، لما كان له في النفس ذلك الأثر ، الذي يبلغه هذا التعبير المصور ؛ وهو الذي بدأ بذكر رؤيته ﷺ للمشارق والمغارب ، ثم إخباره أن ملك أمته سيبلغ ما رآه .

كذلك فإن التعبير بقوله : « مُلْكَ أُمَّتِي » . وهي كناية عن انتشار الإسلام ؛ لأن ملك الأمة الإسلامية لا يكون إلا حيث يوجد الدين الإسلامي . هذا التعبير نوع من التصوير أيضاً ؛ لأن ملك الأمة يعطي من المعاني والظلال أكثر مما يعطيه انتشار الدين ، فهذا الملك يعني قيام مجتمع إسلامي ودولة إسلامية ، وهذا يعني توطيد بناء الإسلام ، وارتفاع

حصونه في المشارق والمغارب .

ولا يخفى التصوير البلاغي قوله : « وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنَ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ » . كناية عن ملك كسرى وقيصر ، كما يدل قوله ﷺ في الحديث الآخر : « إِذَا هَلَكَ كِسْرَىٰ فَلَا كِسْرَىٰ بَعْدَهُ ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ . وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللهِ » [1] . فإن هذه الكناية تجسم زوال ملك كسرى وقيصر ، فماذا بعد استلاب كنوزهما ؟ . والكنوز دائماً في موضع الحفظ والحماية ، وهي من أهم ما يدافع عنه . فإذا ورث المسلمين هذين الكنزين ، فقد ورثوا الدولتين ومحوهما من الوجود .

ويبدو التصوير في السؤال والجواب ؛ إنه يضع الحقيقة في مشهد حي يجليها للأبصار ؛

فبعد السؤال لا يقول الرسول ﷺ : وقد استجاب الله دعائي . وإنما يقول : « وَإِنَّ رَبِّي قَالَ لِي : يَا مُحَمَّدُ ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ . وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَلَّا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ » الخ .

ومن هنا تتفتح العقول والقلوب لتسمع ماذا قال الله سبحانه لرسول الله ﷺ فتتقرر الحقائق وتعمل عملها في النفوس .

ونلحظ الإطناب في هذا الموضع ؛ لأن الإطناب هنا في حكاية كلام

---

(١) رواه الشيخان وأحمد في مسنده عن جابر بن سمرة ورواه الترمذي وأحمد في مسنده عن أبي هريرة والخطيب عن أبي سعيد .

حبيب إلى القلوب ؛ هو كلام رب العالمين . ولأن القضية بحاجة إلى التقرير والتفصيل ؛ إن هلاك هذه الأمة رهين بالتفرق والصراع والاختلاف ، وإن أمنها وعافيتها وقوتها مشروطة بالوحدة والمحبة والائتلاف .

فما أروع هذا البيان وما أصدقه ، وما أشد تأثيره في القلوب .

حـــق الحيـــاء

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول ﷺ قال : «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ» . قالوا : إنا لنستحي من الله يارسول الله ، والحمد لله . قال : «لَيْسَ ذَاكَ ، مَنِ اسْتَحْيَا مِن اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا وَعَىٰ ، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَىٰ ، وَلْيَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَىٰ . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَآثَرَ الآخِرَةَ عَلَىٰ الأُولَىٰ» .

(رواه الترمذي في كتاب القيامة وأحمد في مسنده ١ / ٣٨٧) [1]

١ الألفـــاظ :

الحياء : الانقباض عن فعل القبيح ، والاحتشام عن الظهور بمظهر قبيح . وهو صفة نفسية تظهر آثارها في الأفعال والأقوال .

يقال : حَيِيَ منه - بفتح الحاء وكسر الياء الأولى وفتح الياء الثاني -

(١) زيدت بعض روايات عبارة (فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء) رواه أحمد في مسنده والطبراني وقالوا حديث حسن وصححه الحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود الخرايطي في مكارم الأخلاق عن عائشة أما الترمذي فقال حديث غريب . اما رواية الطبراني في الكبير وابو نعيم في الحلية : استحيوا من الله حق الحياء احفظوا الرأس وما حوى والبطن وما وعى واذكروا الموت والبلى فمن فعل ذلك كان ثوابه جنة المأوى » .

حياءً ، واستحيا منه ، واستحى منه أيضاً ، واستحياه ، فهو حَيِيّ - بفتح الحاء وكسر الياء الأولى وتشديد الياء الثانية - أي ذو حياء .

٢ - المعاني والأفكار :

أراد النبي ﷺ أن يلفت أنظار أصحابه إلى حقيقة الحياء ، وأن يعلمهم كيف يتصفون به عملاً وسلوكاً ، لا أن يكون حظهم منه الادعاء . فبدأها بهذا الأمر الموجز :

« اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » .

وهو أمر تعليمي يهدف إلى إثارة الانتباه وإيقاظ الشعور ، بأن هناك أمراً يغيب عن أذهان المخاطبين .

ولذا كان الجواب يتضمن طلب المزيد من المعرفة ، وإيضاح المقصود من هذا الأمر . فقالوا : إنا لنستحي من الله يارسول الله ، والحمد لله . حسب علمنا وما نحيط به من معانيها .

وهنا يتهيأ الموقف للتعليم والإرشاد ، ولرسم حدود الحياء الكامل ، وتوضيح حقيقته من كل جوانبها ؛ فقال النبي ﷺ : « لَيْسَ ذَاكَ » . أي ليس المقصود من الحياء هو ما تعلمونه عنه من معنى ضيق ؛ وهو ترك الظهور بالمظهر القبيح ، أو التورع عن المجاهرة بالآثام . بل إن للحياء الكامل والجدير بلفظ الحياء عن حقيقة - أفقاً أعلى من من ذلك وأرحب .

إن الحياء - حق الحياء - أن يراقب الإنسان ربه في السر والعلن ، وألا

يستتر عن الخلق بالمعاصي ثم يجاهر بها ربه . ومن هنا فإن على المؤمن أن يحفظ كل جوارحه ، وأن يمتلك زمام كل غرائزه ، وأن يجعل كل حواسه مقيدة بقيود الإيمان ، خاضعة لتوجيهه .

ثم لا ينتهي الأمر عند ذلك ، بل لابد لمن يراقب مولاه ويتصف بالحياء معه أن يتذكر المصير ؛ حيث تتبدل صورته ويصيبه البلىٰ ، فكل نعيم لا محالة زائل ، ولا معنى إذن للتنافس على الشهوات ، أو الحرص على الملذّات ، ولابد أن يلائم الإنسان بين سلوكه في الدنيا ومعرفته بالمصير الذي ينتهي إليه كل حي ، وإلا صار الإنسان غافلاً عن العاقبة التي لا محيد عنها ، وكان داخلاً فيمن قال فيهم الحق سبحانه : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

وإن سعي الإنسان ليختلف تبعاً لاختلاف غايته ؛ فمن أراد الآخرة وأدرك أنها الحياة الباقية ، التي لا خوف فيها ولا حزن للمؤمنين ، وأن متاعها هو المتاع الباقي الجدير بالابتغاء ، فليثبت ذلك بتعاليه على متاع الدنيا ، والزهد في زينتها ، وعدم التكالب عليها والمنافسة فيها ، وحينئذ يكون قد آثر ما يبقى على ما يفنى ، واتضحت لديه قيم الأشياء ، فلا يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .

ومن هنا كانت همم الأنبياء والصديقين متعلقة بتلك الأهداف السامية ، راغبة عن دنيء المقاصد وزائل الأغراض .

---

(١) سورة الحجر : ٣ .

نرى ذلك في قول الله سبحانه مخاطباً رسول الله ﷺ : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾[1] .

وهذا الإيثار للباقي على الفاني ، وترك زينة الحياة الدنيا التي تعد فضولاً وتكاثراً ، وثيق العلاقة بمعنى الحياء ؛ فإن المؤمن الذي يراقب ربه ويستحي أن يراه ربه في موقف معصية ومخالفة لأمره ، يستحي كذلك أن يراه ربه وقد استحب الحياة الدنيا على الآخرة ، أو قد آثر الفاني على الباقي ، وباع دينه بعرض من الدنيا قليل . فهذا الاتجاه المادي خطيئة كبرى ، يخرج بها الإنسان من عداد الموقنين ، وينتهي به إيثار الدنيا والغفلة على الآخرة إلى هاوية سحيقة يصورها قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[2] .

وما يرضى مؤمن ذو حياء أن يسلك هذا الطريق المهلك البعيد عن حقيقة الإيمان .

٣ - طريقة التصوير :

رأينا في هذا الحديث الأسلوب التعليمي ، الذي يهدف إلى تقرير الحقائق بعد إثارة الإنتباه ، وتشويق المخاطب إلى معرفة الجواب الصحيح . ولكنه أيضاً يعتمد على بلاغة التصوير وإيجاز التعبير .

---

(١) سورة الضحى : ٤، ٥ .

(٢) سورة يونس : ٧، ٨ .

وندرك من البداية الميل إلى التصوير والتمثيل في قوله : « مَنِ اسْتَحْيَا من اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ ألخ . . . » . ولم يقل مثلاً : الحياء حق الحياء هو حفظ الرأس وما وعى فنرى في الأسلوب الأول صفة قائمة بشخص ، مصورة لسلوك واقعي يتمثله المخاطب ، إلى جانب ما يدل عليه أسلوب الشرط من إيقاظ وتنبيه . أي من أراد أن يتصف بصفة الحياء الحق ، الذي يستكمل جوانب الحياء جميعاً ، فليفعل كذا وكذا .

وهنا يأتي الإيجاز الذي يناسب أسلوب التعليم ، فيجمع المعاني الكثيرة بلفظ يسير ، مع سهولة الحفظ وجمال اللفظ وتناسقه . إنه يقول : « أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَىٰ » .

وهي كناية عن حفظ حواس متعددة يشملها الرأس ؛ ففيه حاسة السمع ، وحاسة البصر ، وحاسة الشم ، وحاسة الذوق ، وفيه ملكة العقل ، ووسيلة الكلام - وهي اللسان - فما أعجب هذا الإيجاز ، وما أروع هذا التصوير الذي يفيد وعي الإنسان بمسئولياته ، ورقابته على حواسه التي جعلها الله سبحانه أمانة عنده ، كما قال سبحان : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [1] .

وكذلك القول في حفظ البطن وما حوى ، فإنه كناية عن ابتغاء الحلال في الطعام والشراب ، فلا يدخل الإنسان في بطنه إلا ما كان حلالاً في

---

(١) سورة الأسراء : ٣٦ .

ذاته ، من طيبات الطعام والشراب ، حلالاً في وسيلته ؛ بأن يكون من كسب طيب لا شبهة فيه . وإن الكناية بحفظ البطن لتتسع بعد ذلك حتى تشمل حفظ غريزة النوع ، التي تتصل بحفظ البطن اتصالاً لازماً .

فماذا بقي بعد ذلك من غرائز الإنسان وحواسه ونوازعه ، التي تشكل كيانه وتمثل حقيقة وجوده ؟ .

إن هذا الإيجاز العجيب ، وهذا التصوير الرائع ، قد أضيف إليه التناسق الدقيق بين الألفاظ والمعاني .

فالحديث يعبر عن الحواس التي يجمعها الرأس بقوله : « وَمَا وَعَىٰ » عن الغرائز التي يجمعها البطن بقوله : « وَمَا حَوَىٰ » .

ومع أن كلمة وَعَىٰ تشارك كلمة حَوَىٰ في أن معناهما جَمَعَ ، إلا أن كلمة وعى تنفرد عن كلمة حوى بأنها تستعمل في الإدارك والمعرفة ، وتناسب خصائص العقل والعلم . وفي حديث أبي شريح في تحريم مكة : « سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي » . ولا يقال : حواه قلبي ؛ لأن الأحتواء يكون في الأمور الحسية ، التي تحفظ حفظاً مادياً ، أما الوعي فيكون في الأمور العقلية المعنوية . وجرياً على هذه التفرقة الدقيقة جاء البيت المأثور :

ليس بعلم ما حواه القِمْطر لكن علماً ما وعاه الصدر

وإذا رأينا هذا التناسق اللفظي البديع ، فلا يفوتنا أن نرى كذلك التأثير الإيقاعي بين الجمل الواردة في الحديث ؛ حيث تربط بينهما نغمة صوتية متشابهة ، ناشئة عن التقارب في الوزن بين كثير من الألفاظ ؛ فكلمة تحفظ

مساوية لكلمة تذكر ، وكلمة الرأس مساوية لكلمة البطن ، وكلمة وعى مساوية لكلمة حوى ، وكلمة الدنيا مساوية لكلمة الأولى .

ويزيد من روعة هذا التأثير أنه ليس ناشئاً عن تكلف ، ولم يكن على حساب المعنى ، فالمعنى واضح مستقيم يجري في مداه الفسيح ، واللفظ متناسق متقارب يزيد إيقاعه المتشابه المعنى وضوحاً وتأثيراً .

وانظر إلى السجع هنا ؛ وهو توافق الفواصل : وعى ، حوى ، البلى ، الدنيا الأولى ، فإنك لا تجد فيه كلمة مستكرهة أتى بها من أجل هذا التوافق في الفواصل ، ولكنها هكذا جاءت طيعة مؤدية للمعنى مؤثرة في اللفظ . وهنا يسأل سائل : إذن فماذا أفادتنا كلمة البلى التي جاءت بعد كلمة الموت ؟ . أوليس الإتيان بهذه الكلمة من أجل رعاية الفواصل ؟ . وإلا فإن كلمة الموت تغني عنها ؟ .

ونجيب : بأن كلمة البلى هنا لم تأت رعاية لفواصل ، ولكنها جاءت لتؤدي دورها الأصيل في رسم الصورة المقصودة . .

إن كلمة الموت لا تفيد في معناها اللغوي أكثر من زوال الحياة عن الكائن الحي [1] ، أما كلمة البلى فإنها ترسم ظلالاً أخرى في الصورة ؛ إنها تصور الإنسان وقد أصابه بعد الموت ما أصابه ؛ من تغير وتبدل ، واستحالة في الصورة إلى حد ينفر منه أقرب الناس وأحبهم إليه . . لقد أصبح هذا

---

(١) الموت يفيد الانتقال من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ ليس ضد الحياة . إنما قوله تعالى ﴿ لا تحسبَنَّ الَّذينَ قُتِلوا في سبيلِ اللهِ أمواتاً بَلْ أحياءٌ عندَ ربِهِمْ يُرزقونَ ﴾ فأكرمهم وشرفهم بحياة خاصة عنده .

الذي كان بالأمس منعماً مترفاً في حال كئيبة موحشة ؛ فهذا الجسم ، الذي طالما خدمه وحرص على رفاهيته ، أضحى طعاماً للديدان . فما أحزنها من صورة ، ولكنها تدفع إلى التأمل في المصير ، وحسن الاستعداد لما بعد الموت .

ولا يعد منا أن نجد التأثر بالأسلوب القرآني في هذا الحديث ؛ فقوله : « وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . يذكرنا بقوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ﴾[1] . وقوله : « وآثَرَ الْآخِرَةَ عَلَىٰ الْأُولَىٰ » . يذكرنا بآيات كثيرة ؛ منها قوله سبحانه : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[2] .

وبعد ، فماذا نقول بعد ذلك في هذا البيان النبوي الرائع ، الذي يستخرج منه النظر أنماطاً عجيبة من الإبداع ؟ . ليس لنا هنا إلا أن نقبس قول الرافعي عن هذا البيان : كأنما وضع ﷺ يده على قلب اللغة ؛ فهي تنبض تحت أصابعه .

وصدق الرافعي ، وما وفى هذا البيان حقه .

---

(١) سورة الأسراء : ١٩ .

(٢) سورة الأعلى : ١٦ ، ١٧ .

الإنسان يبيع نفسه

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ . وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ الْمِيزَانَ . وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ - أَوْ تَمْلأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ . وَالصَّلاَةُ نُورٌ . وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ . وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ . وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْعَلَيْكَ . كُلُّ النَّاسِ يَغْدُوفَبَائِعٌ نَفْسِهِ فَمُعْتِقُهَا أَوْمُوبِقُهَا » .

رواه مسلم في صحيحه - كتاب الطهارة [1]

١ - الألفاظ والأساليب :

الطهور : بفتح الضاء وضم الهاء مصدر طهر . وهو أيضاً اسم لما يتطهر به ؛ كما في الحديث الصحيح : « وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً » . والمراد هنا المعنى الأول وهو التطهير .

الشطر : نصف الشيء وجزؤه . ومنه حديث الاسراء : « فَوَضَعَ شَطْرَهَا » أي بعضها والجمع أشطر وشطور . والشطر أيضاً الجهة والناحية ،

(١) رواه أحمد في مسنده والترمذي وقالوا حديث صحيح .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [1]. والمراد هنا المعنى الأول ؛ بمعنى نصف الشيء أو جزؤه .

موبقها : مهلكها . وهو اسم فاعل من أوبق بمعنى أهلك .

٢ - المعاني والتصوير

في هذا الحديث تعريفات موجزة ، تهدف إلى جلاء آثار العبادات وفضائلها ، وبيان ما تؤدي إليه في الدنيا والآخرة من رشد وفلاح .

ويبدأ الحديث بالطهور ؛ فيجعله شطرا للإيمان ، وسواء جعلنا الشطر بمعنى النصف أو بمعنى الجزء ، فقد أثبت الحديث للطهور فضلاً عظيماً ؛ حيث جعله داخلاً في حقيقة الإيمان مكملاً له ، مما جعل العلماء يحاولون تحديد المقصود بهذا الطهور ، الذي جعله النبي ﷺ شطراً للإيمان ؛ هل هو تطهير النفس من الآثام ، وتبرئتها من النقائص والعيوب ؟ وذلك بترك المحظورات واجتناب المحرمات . أما تطهير الجسد من الأحداث بأنواع الطهارة ، التي هي شرط لابد منه لأداء العبادة .

والذين قالوا بالمعنى الأول رأوا أن الإيمان فعل وترك ؛ فنصفه فعل ما أمر الله ، والنصف الآخر اجتناب ما نهى الله عنه ، وهو المقصود بالطهور .

والذين قالوا بالمعنى الثاني ، استدلوا بالرواية الأخرى للحديث وهي : « الْوُضُوءُ شَطْرُ الْإِيمَانِ » . وإذن فلا بد من تأويل كلمة الإيمان هنا ليس معناها التصديق بالعقائد التي جاء بها الإسلام ، وإنما هو بمعنى الصلاة

---

(١) سورة البقرة : ١٤٤ .

كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [1]. أي صلاتكم التي صليتموها إلى بيت المقدس ، وذلك قبل تحويل القبلة إلى المسجد الحرام . فلما كان الطهور شرطاً لصحة الصلاة ، صار كأنه نصف لها .

والذي نراه أن الطهور يشمل المعنيين جميعاً ؛ إنه طهارة الجسد وطهارة النفس ، وما جعل الإسلام طهارة الجسد إلا إشارة لما يبتغيه من المسلم طهارة الخلق ونقاء السريرة ، وهذا ما يفهم من قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [2]. فإنه وإن أفاد تطهير الثياب من الأدناس ، فقد أفاد ايضاً تطهير النفس من الأرجاس . والعرب يقولون : فلان طاهر الأثواب ، كناية عن نقاء عرضه وتنزهه عن الشبهات .

وهذه الطهارة بمعناها الجامع شطر الإيمان ، لأنها لا تكون إلا عن مراقبة لله وطاعة لأمره . ولكننا لا نرى الشطر هنا بمعنى النصف بل نراه بمعنى الجزء ، فالطهارة - سواء كانت طهارة النفس أو طهارة الجسم - جزء من الإيمان ، وصفة من صفات المؤمنين ، كما قال سبحانه في صفة المؤمنين : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [3].

---

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .

(٢) سورة المدثر : ٤ .

(٣) سورة التوبة : ١٠٨ .

ومن الطهارة ينتقل الحديث إلى العبادة . والجامع بين الأمرين أن الطهارة شرط للعبادة . والجو في الحديث كله جو عبادة ، سواء كانت عبادة قولية أو فعلية أو مالية ، والعبادة القولية أيسر من العبادة الفعلية ولذلك بدأ بها في قوله : « وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ . . » .

عجباً ، كلمة يقولها العبد لا تعسر عليه ، ولا تكلفه من المشقة شيئاً ، ولكنه يثاب عليها هذا الثواب العظيم ، الذي تعبر عنه تلك الكناية الرائعة : « تَمْلأُ الْمِيزَانَ » . أي أن ثوابها لو كان جسماً ، لكان جسماً عظيماً يملأ الميزان الذي توزن به أعمال العباد يوم القيامة ، وليس هذا تأويلاً جديداً ، بل هو رأي قديم قال به كثير من العلماء ، ومنهم ابن رجب الحنبلي الذي قال : هذا ضرب مثل ، والمعنى : لو كان الحمد جسماً لملأ الميزان .

كذلك الشأن في قوله : « وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ - أَوْ تَمْلأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » وهو الذي يقوي الكناية في الجملة السابقة ، إذ لو قلنا فيها أنها تملأ الميزان حقيقة ، فماذا نقول هنا في قوله : « تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَلْأَرْضِ » ؟ . إنه لابد أن يكون الملء هنا كناية عن عظم الثواب الذي يناله المسبِّح ، كما كان ملء الميزان كناية عن عظم الثواب الذي يناله المحمِّد ؛ أي الذي يقول : الحمد لله .

ويتضح هنا إيثار التصوير على التقرير - كما أشرنا إلى ذلك في الأحاديث السابقة - وهي خاصة من خصائص الحديث النبوي ، يراد بها تقوية التأثير وتجسيم الحقائق في صور تعرف طريقها إلى القلوب .

فلو قال النبي ﷺ : إن ثواب الحمد عظيم ، وإن ثواب التسبيح جليل . أتراه كان يصل إلى التأثير والترغيب الذي يراه السامع في قوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ » . إن تلك الجملة المصورة قد انتقلت بنا من الدنيا إلى الآخرة ، وأرتنا كلمة الحمد وقد ملأت ميزان الحسنات حتى رجح واستحق صاحبه الجنة .

فمن يرى كلمة الحمد وهي ترجح الميزان ، ثم يبخل بها أويتوانى عن ترديدها ؟! . وهذا فضل التصوير ومزيته على الإخبار المجرد ، الذي يلتزم الحقيقة اللغوية وينأى عن المجاز .

ومن التسبيح والتحميد ينتقل الحديث إلى الصلاة والصدقة والصبر ، فما الصلة بينهما ؟ .

إن الصلاة صلة بين العبد وربه ، والصدقة صلة بين العبد وإخوانه ، والصبر هي الوسيلة التي يستعان بها على الصلاة والصدقة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [1] .

فهي عبادات مترابطة ، وأعمال لا ينفك بعضها عن بعض ، فالقرآن يجمع بين الصلاة والزكاة في أكثر آياته ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ [2] .

---

(١) سورة البقرة . ٤٥ .

(٢) سورة البلد : ١٧ .

ومن هنا نجد الاختيار النبوي لهذه العبادات مبيناً على الوحدة والترابط ، وليس جمعاً بين أشياء مختلفة في نطاق واحد .

هذا من ناحية التناسب في المعاني ، وإني لأجد تناسباً بينها في الألفاظ كذلك ؛ فكل من هذه الكلمات يبدأ بحرف واحد وهو الصاد ، ولعل ذلك سر اختيار النبي ﷺ لكلمة الصدقة بدلاً من كلمة الزكاة ؛ حتى تناسب في جرسها ما قبلها وما بعدها .

كما أن هناك تناسباً في الوزن بين كلمة الصلاة والصدقة ، فكلاهما على وزن فعلة - بفتح الفاء والعين واللام - .

هذا عن المبتدآت في هذه الجمل الثلاث : الصلاة والصدقة والصبر . فماذا عن أخبارها ؟ .

إن أخبارها على الترتيب هي : نور - برهان - ضياء .

وللوهلة الأولى نظن أن هذه الألفاظ الثلاثة بمعنى واحد ، وأن النبي ﷺ عبر بها هكذا تنويعاً للتعبير ، وليس بينها من فرق ، أو ليست هناك حكمة من وضعها في هذا الترتيب .

فماذا لو قال : الصلاة ضياء والصبر نور ؟ . لا شيء يختلف حسب الوهلة الأولى .

ولكن النظر اللغوي الدقيق يرى أن في اختيار كل كلمة من هذه الكلمات الثلاث في وضعها حكمة بالغة ، وأن هذه الكلمات ليست متساوية المعنى تماماً ، ولكن بينها فروقاً دقيقة ، تجعل لكل كلمة موضعها

الذي يلائمها .

أما النور فهو الضوء الهادي ، الذي لا حرارة فيه ولا إحتراق ، ولهذا ناسب أن يخبر عن الصلاة بأنها نور ؛ لأنها متعة خالصة للروح تسكب فيها الطمأنينة وتبث فيها الأمان . وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ كان يقوق لبلال : « أَقِمِ الصَّلَاةَ . أَرِحْنَا بِهَا يَابِلَالُ » . وكان ﷺ إذا حز به أمر - أي اشتد عليه - فزع إلى الصلاة ، أي قام إليها لأنها دواء ناجح للهم والحزن ، كما أثبت ذلك علم النفس الحديث .

ولكن الضياء مع مشاركته للنور في أمر الهداية وإزالة حجب الظلمات ، إلا أنه يتميز عنه بأن فيه نوع حرارة وإحراق ؛ كضياء الشمس فإنه نور مع حرارة ، أما نور القمر فإنه نور محض ؛ فيه إشراق بغير إحراق . وذلك هو سر التعبير الدقيق في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُوراً ﴾ [1] .

ومن هنا أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث عن الصبر بأنه ضياء ، لأن الصبر شاق على النفوس ، يحتاج إلى مجاهدتها وتثبيتها وحبسها وكفها عما تهواه ، ولأن معنى الصبر في اللغة الحبس ، فلا يخلو من مشقة وعناء .

هكذا جاء التعبير النبوي عن الصلاة بأنها نور ، وعن الصبر بأنه ضياء ؛ دالاً على الحاسة اللغوية الدقيقة ، وعلى الذوق البياني العالي الذي يضع

---

(١) سورة يونس : ٥ .

ومن خالفت أعماله القرآن هلك ، فكأن القرآن شهد عليه .

والأمر يعود إلى إثارة التصوير على التقرير ، ففي التصوير من التأثير والوضوح ما يملك القلوب ويثبت فيها الحقائق .

فماذا بقي من الدين بعد هذا التصوير الحي لأسس الإيمان ودعائمه ؟ .

لقد بقي توجيه كل إنسان إلى غاية الحياة وعاقبة السعي ، التي ترتبط بعمل الإنسان ارتباطاً وثيقاً .

وليس هناك أبلغ في تصوير هذا السعي وبيان عاقبته من هذه الاستعارة الرائعة في قوله : « كُلُّ النَّاسِ يَغدو فَبَائِعٌ نَفْسِهِ ، فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا » .

إن الحياة تبدو هنا سوقاً يتاجر فيه الناس بأعمالهم ، وكل إنسان يغدو إلى هذا السوق فيقدم فيه شيئاً ، إما خيراً أو شراً ، والعاقبة تعتمد على هذا الذي يقدمه الإنسان ، فإما أن يعتق نفسه من العذاب ، وإما أن يهلكها بما جنت يداه .

والتعبير عن النجاة من النار بقوله : « فَمُعْتِقُهَا » يصور شدة هذا العذاب وأسره واستحكامه وغلظه ، بحيث أن من ينجو منه فكأنه أعتق من رق وفك من أغلال .

والتناسب الصوتي واللفظي بين قوله : « فَمُعْتِقُهَا » وقوله « مُوبِقُهَا » يؤدي دوره في لفت الأنظار إلى المقارنة بين العاقبتين ، فإن الفارق بين الكلمتين يسير في الحروف ؛ فهما تختلفان في الحرفين الثاني والثالث

فقط ، ومع ذلك فإن الفارق بين مدلوليهما بعيد جداً !! إنه الفارق بين الحياة والحرية من جانب ، وبين الهلاك والعبودية من جانب آخر .

وبعد :

فما أعمق ما أثار فينا هذا الحديث من تأملات ، وما أرحب ما انتقل فيه من مجالات . وما أظهر من الجو الذي جعلنا نعيش فيه ، نرى حقائق العبادات وثمارها ، وأخيراً نقف على عاقبة المصير الإنساني ، وندرك المسئولية الثقيلة التي حملها الإنسان .

وما أصدق قول النبي ﷺ :

« أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَاخْتُصِرَ لِيَ الْكَلَامُ اخْتِصَاراً » .

ومن خالفت أعماله القرآن هلك ، فكأن القرآن شهد عليه .

والأمر يعود إلى إثارة التصوير على التقرير ، ففي التصوير من التأثير والوضوح ما يملك القلوب ويثبت فيها الحقائق .

فماذا بقي من الدين بعد هذا التصوير الحي لأسس الإيمان ودعائمه ؟ .

لقد بقي توجيه كل إنسان إلى غاية الحياة وعاقبة السعي ، التي ترتبط بعمل الإنسان ارتباطاً وثيقاً .

وليس هناك أبلغ في تصوير هذا السعي وبيان عاقبته من هذه الاستعارة الرائعة في قوله : « كُلُّ النَّاسِ يَغدو فَبَائِعٌ نَفْسِهِ ، فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا » .

إن الحياة تبدو هنا سوقاً يتاجر فيه الناس بأعمالهم ، وكل إنسان يغدو إلى هذا السوق فيقدم فيه شيئاً ، إما خيراً أو شراً ، والعاقبة تعتمد على هذا الذي يقدمه الإنسان ، فإما أن يعتق نفسه من العذاب ، وإما أن يهلكها بما جنت يداه .

والتعبير عن النجاة من النار بقوله : « فَمُعْتِقُهَا » يصور شدة هذا العذاب وأسره واستحكامه وغلظه ، بحيث أن من ينجو منه فكأنه أعتق من رق وفك من أغلال .

والتناسب الصوتي واللفظي بين قوله : « فَمُعْتِقُهَا » وقوله « مُوبِقُهَا » يؤدي دوره في لفت الأنظار إلى المقارنة بين العاقبتين ، فإن الفارق بين الكلمتين يسير في الحروف ؛ فهما تختلفان في الحرفين الثاني والثالث

...ط ، ومع ذلك فإن الفارق بين مدلوليهما بعيد جداً !! إنه الفارق بين الحياة والحرية من جانب ، وبين الهلاك والعبودية من جانب آخر .

وبعد :

فما أعمق ما أثار فينا هذا الحديث من تأملات ، وما أرحب ما انتقل فيه ... مجالات . وما أظهر من الجو الذي جعلنا نعيش فيه ، نرى حقائق العبادات وثمارها ، وأخيراً نقف على عاقبة المصير الإنساني ، وندرك المسئولية الثقيلة التي حملها الإنسان .

وما أصدق قول النبي ﷺ :

« أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَاخْتُصِرَ لِيَ الْكَلَامُ اخْتِصَاراً » .

حمى الله . . محارمه

عن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال : « الْحَلاَلَ بَيِّنٌ والحرامُ بَيْنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ وَدِينِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ، كَرَاعٍ يَرْعَىٰ حَوْلَ الْحِمَىٰ يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ . أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً ، أَلاَ وَإِنَّ حِمَىٰ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ . أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وِهِيَ الْقَلْبُ »[1] .

أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الإيمان

١ - الألفـاظ :

الحلال : بفتح الحاء وبكسر : ضد الحرام . وأصله من حل بالمكان يحُل - بضم الحاء - ويحِل بكسرها - حلاً وحلولاً وحللاً ؛ إذا نزل به .

والمراد به في الاصطلاح ما أحله الله لعباده في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ[2]

---

(١) روى الحديث البخاري ومسلم وأحمد في مسنده وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن الشعبي عن النعمان بن بشير وهناك روايات كثيرة لهذا الحديث عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما .

(٢) الحلال كما جاء بالحديث الذي رواه الترمذي والبغوي عن سلمان « الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو عما عفى عنه » .

الحرام : ضد الحلال . يقال حرم عليه الشيء - ككرم - حرماً - بالضم وحراماً وحرمه الله تحريماً .

بيّن : واضح . بان الشيء بياناً ، اتضح فهو بين . ولفظ بيّن صفة مشبهة .

مشبهات : ويروى متشابهات جمع متشابه ، ومتشبهات جمع متشبه ، وكلها بمعنى واحد . يقال : تشابه الأمران واشتبها ، إذا أشبه أحدهما الآخر حتى الْتبسا . والشبهة بالضم : الالتباس .

استبرأ : طلب البراءة وتحراها .

العرض : أصله الجسد وكل موضع يعرق منه ، ويطلق أيضاً على رائحة الجسد ، طيبة كانت أو خبيثة .

والعرض أيضاً : النفس وجانب الإنسان الذي يصونه من نفسه وجنبه حتى لا ينتقد . والمراد به هنا : موضع المدح والذم من الإنسان .

الحمى المحمي من الكلإ . يقال : حَمى الشيء يحميه حمياً وحماية بالكسر - ومحمية ؛ إذا منعه .

المضغة بالضم : قطع لحم قدر ما يمضغ .

٢ - **التعبير والتصوير**

يتناول هذا الحديث جانباً من أدق الجوانب في السلوك الإنساني ؛ وهو موقف الإنسان من الحلال والحرام ، وكيف يمكنه التمييز بين ما هو مباح وما هو محظور ، وماذا يفعل إذا اشتبهت عليه الطرق والْتبست المسالك . وهل

يعذر إنسان بادعائه الجهل بالحلال والحرامِ . .؟ إلى غير ذلك من المواقف التي تواجه الإنسان في سلوكه ، والتي تطلب هداية السماء ونور الوحي . .

ويبدأ الحديث بجملة تقريرية موجزة : « الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ » هكذا في وضوح وهدوء يناسبان وضوح هذه الحقيقة في دين الله .

فمن من المؤمنين يجهل أمر الحلال والحرام ؟ وهو أمر يعلم من الدين بالضرورة .

وإذا كان هناك من يجهل فما أسهل أن يتعلم ؛ لأن أصول التحليل والتحريم في الإسلام ترجع إلى مبادىء واضحة ، مركوزة في الفطرة الإنسانية . وهل يعجز إنسان إن تعلم ذلك في آية واحدة كقوله تعالى : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ ﴾ [1] . لقد جمعت قاعدة التحليل والتحريم في الإسلام ، فكل طيب ينفع الفرد والمجتمع فهو حلال ، وكل خبيث يؤذي فاعله ويؤذي المجتمع فهو حرام . ولئن كان أصل الآية في الحلال والحرام من الطعام ، فإنها تشير إلى هذه القاعدة التي بني عليها التحليل والتحريم في الإسلام ، وهي قاعدة مطردة في كل حلال وحرام .

وإذا كان الحلال والحرام أمراً واضحاً في دين الله ، وكذلك واضح في الفطرة الإنسانية القويمة ؛ فهذه الفطرة منذ فجر التاريخ تجمع على تحريم

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٧ .

ما حرمه الله في دينه وعلى ألسنة أنبيائه .

فاتفقت الفطرة مع الشريعة في هذا الأصل من أصول الحياة الإنسانية ، التي لا يصلح أمر الناس إلا بها .

ومع هذا الوضوح في أمر الحلال والحرام ، والأصول التي يقوم على التحليل والتحريم ، فإن هناك مسائل بعينها قد تشتبه أمام الإنسان ، فيتحير أمامها ولا يمكنه الفصل فيها ؛ كأن يكون فيها منفعة من جانب ومضرة من جانب آخر ، ولا يستطيع ترجيح أيها على الأخرى . أو يكون هناك أمر من الحلال قد يلابسه أمر من الحرام . أو تتماثل أدلة التحريم قوة مع أدلة الحل . ولكن وجود هذه المتشابهات لا يقدح في وضوح أمر الحلال والحرام في الإسلام ، لأن النبي ﷺ قال : « لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ » . دل بذلك على أن هناك قليلاً من الناس يعرفون الحقيقة في هذه المسائل ، ويدركون حكم الشرع فيها ، وأولئك هم الراسخون في العلم ، أما الكثرة من الناس فإنها تختلف في هذه المسائل ما بين محلل ومحرم .

وما أدق ما وصف به النبي ﷺ المشكلة وما أوجز وصفه . إن قوله : « لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ » قد أفاد الاحتراز - كما أوضحت - عن احتمال أن تكون هذه المتشبهات مجهولة الحكم ، وحينئذ تقدح في وضوح القضية الأولى وهي قوله : « الْحَلَالُ بَيِّنٌ والْحَرَامُ بَيِّنٌ» .

وإذا تحدثنا عن الإيجاز في هذا الاحتراز ، فلا ننسى الإيجاز من قبل في قوله : « وبَيْنَهَا مُتَشَبِّهَاتٌ » إنه لا أوجز من ذلك ولا أدق .

إنها جملة من مبتدأ وخبر ، أغنت عن جمل عديدة مثل أن يقال : وهناك أمور لا يعرف أكثر الناس فيها وجه الحلال ولا وجه الحرمة ، فيختلفون فيها ويقول بعضهم : هذا حلال . ويقول الآخرون : هذا حرام ألخ .

كل ذلك قد أغنى عن قوله : « بَيْنَهَا مُشَبَّهَاتٌ » إنها أمور بين الحلال والحرام ، لا تبلغ أن تكون حراماً صريحاً ولا حلالاً صريحاً . ولأنها كذلك فهي مشبهات ؛ فيها تتماثل أدلة التحريم قوة من أدلة التحليل ، فأين الحكم الصواب ؟ .

ويأتي الجواب النبوي الحكيم : « فَمَنِ اتَّقَىٰ الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ وَدِينِهِ » .

ونلمح في أول ما نلمح كلمة « اتَّقَىٰ » وهي كلمة مصورة موحية ؛ أن العرب تستعمل كلمة اتقى في الأمور المخوفة المهولة ؛ يقولون : اتق الأسد . أي أحذر شره واجتنب خطره . وفي القرآن : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [1] . وفيه أيضاً : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ [2] . أي أحذروا عقابه واجتنبوا سخطه [3] .

فماذا أراد النبي ﷺ أن يعلمنا من استعماله كلمة « اتقي » في اجتناب

---

(١) سورة البقرة : ٢٤ .

(٢) سورة النساء : ١ .

(٣) اتقوا ربكم اجعلوه وقاية أي جنة من كل شيء يضركم ويسيء إليكم واتقوا النار أي اجعلوا بينكم وبين النار وقاية .

هذه الشبهات ؟ .

إنه أراد أن يوحي إلينا بخطر هذه الشبهات ، وسوء عقبى من هجم عليها بغير حذر ، وخبط في بيدائها بغير دليل . حتى لا يستخف بها أحد ولا يتهاون بأمرها .

ثم نلمح الإيجاز البارع في قوله : « فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ وَدِينِهِ » .

إذ أن العرض والدين يجمعان أمور الإنسان جميعاً ؛ الدينية والدنيوية والفردية والاجتماعية ، فليس بعدهما شيء يحرص عليه الإنسان . والفعل استبرأ بمعنى طلب البراءة ؛ لأن الألف والسين للطلب يناسب الموقف الذي استعمل فيه ، فالموقف موقف شبهات والإنسان في مثل هذا الجو لا يطلب إلاّ البراءة ، ولا يبتغي إلا وضوح الطريق ، ومن هنا فإن اتقاءه لتلك الشبهات ، وبعده عن أسبابها ، هو الذي يحقق له البراءة المطلوبة .

هذا لمن يتقي الشبهات ويحرص على سلامة الاتجاه ، أما من يقتحم ولا يبالي فإن له شأناً آخر .

إن الرسول ﷺ يقابل الصورة الأولى بصورة ثانية ، تضمنها قوله : « وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ » .

والتعبير بقوله وقع يعبر عن النهج وعدم المبالاة [1] ، وقلة الحساسية اتجاه أمر الحلال والحرام . إنه تعبير يدل على عدم ورع من يرتكبون هذه

---

(١) وقع : سقط فيما لا يرضيه وتأتي في مجال الذم يقال وقع فلان في فلان سبّه واغتابه وعابه والمعنى سقوط الإنسان فيما لا يحمد عقباه .

الأمور المشبهة ، ولا يتحرجون من فعلها ولا يتأثمون ، ولا يدققون في البحث والتحري . وأولئك لا محالة يقعون في الحرام ، لأنهم يهتكون الستر بينهم وبينه ، ولأنهم - بقلة فقههم وورعهم - يغشون المحظورات دون مبالاة . ولكن هل ينتهي الأمر بهذا الإخبار ؛ عن أن من وقع في الشبهات وقع في الحرام ؟.

كلا ! إن الأدلة المفضلة للتعبير في الحديث الشريف هي للتصوير الذي يعمق المعني ويبسط ظلاله . ولهذا يعاقب النبي ﷺ هذا الخبر بهذا التصوير البلاغي المؤثر ، فيشبه من يقع في الشبهات فيؤدي به الأمر إلى الوقوع في الحرام ، براعٍ يرعى غنمه حول الحمى ، الذي يحميه الملك أو الزعيم لنفسه ، ويمنع غيره من اقتحامه ، فينتهي الحال بذلك الراعي إلى أن تقتحم أغنامه الحمى ، مادام قد تركها ترعي قريباً منه ، فيصيبه غضب الملك وانتقامه جزاء تجرئه عليه وانتهاكه لحرماته .

وهو تشبيه تمثيلي يعرف مكانه إلى القلوب بيُسر ، لأنه صورة منتزعة من البيئة ، يعرفها العرب جميعاً . وهي كذلك دقيقة منطبقة تمام الانطباق على المشبه ، فهي لذلك تصور العاقبة أسرع ما تكون ، وتجسم أمام الإنسان بداية الطريق ونهايته ، ومن هنا يقتنع العاقل باتقاء الشبهات ، ويبتعد جهده عن أسبابها ، حتى لا يهلك بغشيان المحرمات . وقد اتضحت الصورة وتبينت عناصر دقتها بقوله ﷺ : « أَلَا وَإِنَّ لَكُلِّ مِلكٍ حِمىً ، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ » .

وتلك هي المطابقة لمقتضى الحال ومخاطبة الناس بما يفهمون ، وتقريب المعاني للأفهام بوضعها في الصورة المناسبة والألفاظ الملائمة .

ولكن الأمر لا ينتهي بمعرفة الحلال والحرام . فالتدين ليس علماً فحسب ، ولكن قبل العلم بحاجة إلى إخلاص في النية ، وتسليم لأمر الله ، وحرص على رضوانه .

وأين موضع الإخلاص إلا في القلب ؟! . وهل للإيمان من حقيقة إلا ما يستقر في القلب ؟! .

وإذن فقد ناسب الحديث عن الحلال والحرام ، والأمر باتقاء الشبهات ، والتحذير من الوقوع فيها ، ناسب ذلك الحديث عن القلب الإنساني ، الذي إن صلح صلح الجسد كله ، وصلح ما يصدر عنه من أعمال وأقوال ، وإن فسد القلب ، فسد الجسد كله وصار كل ما يصدر عنه شراً وفساداً . وتلك حكمة عميقة تصور الحقيقة الإنسانية الراسخة ؛ أن الإنسان ليس بمظاهره وأشكاله ، ولكن حقيقته تنطوي في قلبه وتستقر في فؤاده ، وأن الأعمال لا تقاس بمظاهرها وأحجامها ، ولكنها تقاس بما فيها من إخلاص ، وما فيها من نية صالحة ؛ فقد يرتفع الإخلاص بالعمل القليل ، فيرقى به إلى أرفع الدرجات ، وقد يهبط الرياء وسوء النية بالعمل الكبير فلا يكون عند الله مقبولاً .

والإشارة إلى هذه الحقيقة العجيبة يثير في الإنسان التأمل ، ويغير النظرة المادية المخدوعة بالمظاهر ، والحديث يلفت إلى ذلك بهذا التعبير

الدقيق المثير . . « أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً » . إنها قطعة لحم صغيرة ، ومع ذلك فهي تحكم الجسد كله مادياً ومعنوياً ، فالقلب بصورته المادية أمير الجسد ؛ هو الذي يسير حركته ، وهو الذي يبث الدم فيه ، والقلب بما يرمز إليه من حقائق معنوية ؛ من حيث إنه موطن الاعتقاد ، ومناط الشعور ، هو الذي يسير أعمال الإنسان ويحكم تصرفاته .

ومن هنا تبدو المفارقة المثيرة للعجب . . « مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ » . فما تلك المضغة الحاكمة الآسرة للجسد كله ؟ . إنها القلب الإنساني ؛ ذلك الذي قال عنه بعض العلماء الأقدمين ، شرحاً لهذا الحديث : القلب ملك الأعضاء [1] ، وبقية الأعضاء جنوده ، والجنود مطيعون له سامعون لأوامره ، فإذا كان الملك صالحاً كان جنوده صالحين ، وإن كان فاسداً كان جنوده فاسدين .

وما لنا لا نذكر قول القرآن في الإشادة به إن كان صالحاً !! ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[2] .

وبعد :

فما تركنا هذا الحديث النبوي الشريف إلا وقد أيقنا أشد اليقين بأن

---

(١) سمي القلب قلباً لتقلبه المستمر من حال إلى حال لأن التقلب هو التحرك والتنقل من جهة إلى أخرى أو التحول من حال إلى حال فقلب المؤمن يتقلب حيث يريد الله فيكون هواه وتقلبه فيما يرضي الله ويريده ، وبتقلبه تسير خلفه جنوده وهم أعضاءه .

(٢) سورة الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

إصلاح الكيان الإنساني إنما يقوم أولاً على إصلاح القلب ، وبعدها يهتدي القلب فيهدي الأعضاء ، فيصلح من الإنسان ظاهره وباطنه ، وتستقيم خطاه على طريق الله المستقيم .

القلوب . . . والفتن

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوداً عُوداً ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ، حَتَّىٰ تَصِيرَ عَلَىٰ قَلْبَيْنِ : عَلَىٰ أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا ، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَاداً كَالْكُوزِ مُجَخِّياً لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَراً إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ » .

رواه مسلم في صحيحه [1]

١ - الألفـــاظ :

الفتن : جمع فتنة . والمراد بها هنا الضلال والإثم والكفر .

ومن معاني الفتنة أيضاً المحنة والعذاب ، وإذابة الذهب والفضة ، يقال : فتنه [2] يفتنه : أوقعه في الفتنة .

نكت : نقط . والنكتة - بضم النون - النقطة . قال ابن دريد : كل نقطة في شيء بخلاف لونه فهي نكت .

---

(١) ورواه أحمد في مسنده وقال حديث صحيح .

(٢) فتن المعدن : صهره في النار ليختبره .

وقال في القاموس : النكت : أن تضرب في الأرض بقضيب فيؤثر فيها .

الصفا : الحجر الأملس .

المربادّ : شبه البياض في سواد . والربدة : شيء من بياض يسير يخالط السواد ؛ كلون النعام . ومنه قيل للنعامة : ربداء .

قال أبو عبيدة : الربدة لون بين السواد والغبرة .

وقال ابن دريد : الربدة لون أكدر .

ومنه : ربد لونه إذا تغير وداخله السواد .

المجخّي : بضم الميم وفتح الجيم وكسر الخاء المعجمة : المائل المنكوس .

٢ - المعاني والتصوير

كان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مرهف الحس رقيق الشعور ، معلق القلب بمستقبل هذه الأمة ، يخشى عليها من الأحداث ، ويشفق عليها من الفتن ، ومن هنا كان كثيراً ما يسأل النبي ﷺ عن المستقبل البعيد للأمة الإسلامية : هل يدوم لها الخير أم يعقبه الشر ؟ . وإذا أتى الشر فهل يدوم أم يطرده الخير ؟ . وغير ذلك من المسائل التي تدل على نظر بعيد ، وعلى نفس حذرة مشفقة ، لا تشغل بذاتها وإنما تستغرق في النظر إلى مصالح الجماعة .

وفي هذا الحديث كان مناسبة روايته أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

– أيام خلافته – كان يجلس مع نفر من صحابة رسول الله ﷺ منهم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فقال عمر : أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعنا فقال عمر : لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره . قالوا : أجل . قال : تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر ؟ . قال حذيفة : فاسكت القوم .

فقلت : أنا . قال : أنت ؟ . لله أبوك ! .

وهنا قال حذيفة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ » إلى آخر الحديث الذي قدمناه .

إن هذه التقدمة التي عرضناها ضرورية لفهم المراد بالفتنة في هذا الحديث ، فحين سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصحابة ؛ من منهم سمع ما قال النبي ﷺ في شأن الفتنة . فأجاب منهم جماعة بأنهم سمعوا ما قاله النبي ﷺ في الفتنة نبههم عمر بن الخطاب إلى ما يقصده من حديث النبي ﷺ في الفتن ؛ إنه لا يريد الفتن الفردية ، التي تصيب الإنسان في معاملته لأهله أو معاملته لجاره ، وما إلى ذلك من مسائل هينة ، وإنما يريد أن يعرف ما قاله النبي ﷺ في شأن الفتنة الكبرى ؛ التي تتصل بمصالح الجماعة المسلمة وأهدافها . وقد وصفها عمر رضي الله عنه هذا الوصف الموحي المثير بقوله : التي تموج موج البحر . أي التي تتحرك وتتقلقل وتصيب بخطرها القاصي والداني ، وتغشى الناس بظلامها ، وتعمي كثيراً

منهم عن طريق الصواب .

وهنا قال حذيفة : - بعد أن فهم مقصود أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه - بعد أن سكت القوم ولم يجيبوا ؛ لأنهم لم يسمعوا من النبي ﷺ في شأن تلك الفتن شيئاً قال : أنا . ففرح عمر رضي الله عنه لأنه وجد بين الصحابة من سمع شيئاً عن تلك الفتن ، كما أعجبه أن يكون ذلك القائل هو حذيفة بن اليمان ، لما عرف عنه من صدق ، ولما اشتهر به من معرفة لذلك الشأن من النبي ﷺ فقال له عمر : أنت ؟. لله أبوك . وهي كلمة إعجاب وتقدير .

فماذا روى حذيفة عن رسول الله ﷺ ؟.

إنه حديث يبلغ الغاية في الإيحاء والتصوير ؛ فهذه الفتن التي تموج موج البحر تعرض على القلوب . وقد علمنا من قبل أن القلب في الإنسان هو مناط الاعتقاد وموضع الصلاح والفساد ، ولكن كيف تعرض ؟. ومن الذي يعرضها ، وقد جاء الفعل هكذا مبنياً للمجهول ؟. لا يعنينا أن نحدد ذلك ، فإن البناء للمجهول هنا مقصود ؛ لأنه لا فائدة للمخاطب أن يعرف ذلك ، وقد تأسى النبي ﷺ في ذلك بأسلوب القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ [1] . فمن الذي زينها ؟. هل هي فطرة الإنسان أم وسوسة من الشيطان ؟. ولا فائدة تتعلق بتحديد ذلك ومعرفته ، وإنما المهم أن يعرف الإنسان تلك الحقيقة ، فيستعد لها ويتهيأ

---

(١) سورة آل عمران : ١٤ .

لمقاومة نوازعها .

وهكذا الشأن هنا ؛ إن الفتن تعرض على القلوب ، فالمهم أن يحذر الإنسان شرها ، وأن يعتصم بالله من الانقياد لها . ولا تتعلق الفائدة بمعرفة من الذي يعرضها وكيف يعرضها . . والمهم أن القلوب جميعاً تختبر بتلك الفتن ، المتتابعة التي تميز بين المؤمنين البررة والفاسقين الفجرة .

ويلفت نظرنا عدول الحديث سريعاً من الإخبار إلى التصوير : « تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوداً عُوداً » . فأي صورة نتمثلها من هذا التشبيه البديع غير المبتذل ولكن تصور هذا التشبيه على حقيقته ضبط كلمة « عُوداً عُوداً » فمن العجب أن الرواة العلماء قد اختلفوا في ضبطها على أوجه ثلاثة :

عُوداً عُوداً : بضم العين وبالدال المهملة . وعَوداً عَوداً : بفتح العين وبالدال المهملة أيضاً . وعَوْذاً عَوْذاً : بفتح العين وبالذال المعجمة .

فإذا أخذنا الضبط الأول - بضم العين وبالدال المهملة ، كان المعنى أن هذه الفتن تظهر للقلوب فتنة بعد أخرى ، كما ينسج الحصير عوداً عوداً .

فأي صورة هذه ؟! .

إنها صورة دقيقة غير متكلفة ؛ فالعرب يعرفون الحصير وكيف يصنع ، ويرون ناسجه وهو ينسجه ، كلما صنع عوداً أخذ بعده آخر في نسجه ، وهكذا الفتن ؛ تأتي متتابعة واحدة بعد أخرى ، كلما نجا الإنسان من واحدة منها جاءته الأخرى بعدها ؛ تمحيصاً واختباراً ، ليظهر معدنه ، وتتبيّن

دقيقته . . فليست هناك صورة تثبت في أذهان المخاطبين كهذه الصورة الدقيقة الموحية .

أما إذا اعتبرنا الضبط الثاني للكلمة - وهو عَوداً عَوداً ، بفتح العين والدال المهملة - فإن المعنى أن هذه الفتن تعاد وتكرر شيئاً بعد شيء . ولكن التصوير الأول الذي سبق بيانه مليء بالحركة ، معبر تمام التعبير عن وقع الفتن ووردها في القلب .

بل إن العلماء من قال : إن معنى تعرض الفتن على القلوب ؛ أنها تلصق بعرضها - أي جانبها - كما يلصق الحصير بجنب النائم ويؤثر فيه . ولكنه تأويل لا يتفق مع قوله بعد : « وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضاءُ » .

أما الضبط الثالث للكلمة - وهو عَوْذاً عَوْذاً - فإنما معناه الاستعاذة بالله سبحانه كما يقول : غفراً غفراً ، أي نسألك يا الله أن تعيذنا من تلك الفتن ، وان تنجينا من شر عرضها على القلوب .

فأي الوجوه الثلاثة في الضبط أولى بالصواب ؟ .

إن الوجه الأول - كما قال القاضي عياض - هو الذي يتفق مع معنى الحديث وهو الذي يدل على سياق لفظه وصحة تشبيهه .

وبعد عرض الفتن على القلوب يأتي بيان موقف القلوب من الفتن .

إنها تختلف في هذا الموقف وتتفاوت ؛ فمنها ما يقبل الفتنة ويستجيب لها ، ومنها ما يرفض الفتنة ويأباها .

ولكن الحديث أيضاً يؤثر التصوير على التقرير ، فيعبر عن قبول القلب للفتنة بقوله : « فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا » . وهي استعارة مكنية ، نرى فيها الفتنة وقد شبهت بشراب حلو تميل إليه الأهواء ، وهكذا الفتن يكون لها إغراؤها وإلحاحها على المشاعر والقلوب ، وهكذا يشربها القلب المريض الذي لا صلابة له ولا تماسك . فتحل منه محل الشراب . وأصل هذه الصورة في القرآن الكريم ؛ وهو قوله تعالى عن اليهود الذين عبدوا العجل : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ (١) . أي حل حب العجل في قلوبهم محل الشراب وتمكن منهم . ومنه قولهم : ثوب مشرّب بحمرة ، أي خالطته الحمرة مخالطة لا انفكاك لها .

ولم ينته التصوير عند قوله : أُشْرِبَهَا ، ولكن قوله : « نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ » ينحو هذا المنحى ؛ لأن النكت إنما يكون في الأشياء الحسية المرئية ، والقلوب لا تشاهد بواطنها ولا ترى صورها ، فأراد الحديث تقريب معنى تأثير الفتنة في القلوب التي تقبلها ، بتشبيه ذلك الأثر بالنكت وهو النقط ، وجعل النكتة سوداء رمزاً لسوء أثرها وقبح عقباها . والعرب تضرب بالسواد مثلاً لذلك ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ (٢) .

أي يستبشر قوم ويبتئس آخرون .

---

(١) سورة البقرة : ٩٣ .

(١) سورة آل عمران : ١٠٦ .

وقد عرفنا أن هناك قلوباً تقبل الفتنة وقلوباً ترفضها . وعلمنا أن القلوب الاولى ينكت فيها نكتة سوداء ، والأخرى ينكت فيها نكتة بيضاء . وقلنا : نكتة كما جاء في لفظ الحديث ، ولكن هل نسينا أنها فتن كأعواد الحصير ، وليست فتنة واحدة ؟ .

ومن هنا فإن النكت السوداء تكثر في قلوب من يقبلون الفتنة ، ومن تشرب قلوبهم حبها ، ويختفي البياض من تلك القلوب شيئاً فشيئاً ، حتى تصير هذه القلوب في تلك الصورة العجيبة ، التي وضعها الحديث في ذلك التشبيه الفريد : « كَالْكُوزِ مُجَخِّياً » . إنه الكوز الذي يعرفه العرب مليئاً بالماء ؛ يروي غلة العطشان ، ولكنه هنا كوز مقلوب منكوس فارغ من الماء ، حتى من القطرات التي قد توجد في مثل هذا الإناء ، ولكنه إذا قلب لم يبقى فيه شيء ، ولا قطرة من ماء . وهكذا حال تلك القلوب التي تقبل الفتن وتستجيب لها ؛ فليس فيها شيء من الخير ، أو كما جاء في الحديث : « لَايَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَراً إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ » .

أما القلوب التي لا تقبل الفتنة ، فإن الحديث يشبهها بالصفا - وهو الحجر الأملس - ووجه الشبه هنا ليس البياض ، ولكن وجه الشبه هو الصلابة والشدة في عقد الإيمان وسلامته من الخلل ، وأن الفتن لا تلصق به ولا تؤثر فيه ، كما أن الصفا - وهو الحجر الأملس - لا يبقى عليه شيء ولا يلصق به شيء .

وقد ضرب القرآن بالصفوان في عدم بقاء شيء عليه ، وذلك في قوله

سبحانه : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً ﴾ [1] .

وهكذا نرى هذا الحديث الشريف ، وقد جعل التصوير أداته لتقرير الحقائق ، ورسم الشخصيات وتحديد المواقف ، وتحويل المعنويات إلى مشاهد حية تراها الأبصار . وهل هناك أخفى من القلوب وما فيها من آثار ؟! .

لكن الحديث أرانا قلب المؤمن - في صلابته وتماسكه وشدة عزمه - فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض . وأرانا قلب المنافق ؛ فارغاً من الخير ، خالياً من الإيمان ، أسود يكاد يخلو من البياض ، منكوساً مقلوباً ، قد فارقه ما كان فيه من إيمان وزايله ضياء الإسلام .

وكفى بذلك قدرة على التعبير ، وتمكناً من زمام اللغة .

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٤ .

حق الله على عباده

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : بينا أنا رديف النبي ﷺ ، ليس بيني وبينه إلا آخرة الرَّحْلِ ، فقال : « مُعَاذُ » . قلت : لبيك يارسول الله وسعديك . ثم سار ساعة فقال : « يَا مُعَاذُ » قالت : لبيك يارسول الله وسعديك . قال : « هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَىٰ عِبَادِهِ ؟ » قلت : الله ورسوله اعلم . قال : « حَقُّ الله عَلَىٰ عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً » . ثم سار ساعة ، ثم قال : « يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ » . قلت : لبيك رسول الله وسعديك . قال : « هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ علَىٰ الله إِذَا فَعَلُوهُ ؟ » . قلت : الله ورسول أعلم . قال : « حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ الله أَلاَّ يُعَذِّبَهُمْ » .

أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الرقاق

باب من جاهد نفسه في طاعة الله [1] .

---

(١) رواه مسلم وأحمد في مسنده والترمذي وابن حبان وابن ماجه في الصحاح وفي بعض الروايات « وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا » .

١ - الألفـاظ :

رديف : فعيل بمعنى مُفْعل ، أي مُرْدَف خلف النبي ﷺ . يقال : أردف فلان فلاناً على راحلته : أي أركبه خلفه .

آخرة الرحل : أومؤخرته ؛ هي العود الذي يُجْعَلُ خلف الراكب يستند إليه ، والرحل : بفتح الراء وسكون الحاء ، هو للبعير كالسرج للفرس .

لبيك : لها معان متعددة منها : أنا مقيم على طاعتك إلباباً بعد إلباب ، وإجابة بعد إجابة . من ألبَّ بمعنى أقام . أو : اتجاهي وقصدي إليك من قولهم : داري تلب داره : أي تواجهها . أو معناها : محبتي لك . من قولهم : امرأة لبة ، أي محبة لزوجها . أو معناها : إخلاصي لك . من قولهم : حسب لباب ، أي خالص .

وهذه المعاني متقاربة تجمع بين السمع والطاعة والحب والإخلاص .

سعديك : إسعاداً بعد إسعاد . والمراد : أنا أسعى فيما يسعدك .

٢ - موضوع الحديث

هذا الحديث نموذج للأسلوب التعليمي التوجيهي في الحديث الشريف ؛ فقد أراد النبي ﷺ أن يعلم المؤمنين حقيقة جامعة للدين كله ، تبين لهم ما يجب عليهم من حقوق الله سبحانه ، وما يستحقونه إن هم أحسنوا القيام بهذه الحقوق ، فاختار للإفضاء بهذه الحقيقة ، ذلك الأسلوب المشوق الذي يسير الإنتباه ويوقظ الوعي في نفس الإنسان ؛ أسلوب السؤال والجواب . وكان السائل هو الرسول ﷺ كما كان هو

المحبب ، ومعلوم أن الحقيقة التي يحصلها الإنسان بعد تشوق وتطلع إلى معرفتها ، تثبت في عقله وقلبه أكثر مما يساق إليه بلا طلب ولا شوق ؛ وذلك هو الأسلوب التعليمي الأمثل في عصرنا ؛ الذي اهتدى إليه المربون بعد عناء التجارب ، بينما هو مذخور في تراثنا الإسلامي ، في مثل هذه الصورة المشرقة التي نراها في هذا الحديث .

ولا يفوتنا أن نرى في هذا الحديث الأسلوب الحكيم الذي كان النبي ﷺ يتّبعه ؛ فقد كان معلماً وهادياً ، لا يترك فرصة للتربية والهداية إلا اغتنمها . وكان يختار من شباب المسلمين من يتوسم فيهم الوعي ورحابة العقل ، ليزودهم بهذه الكلمات الحكيمة الجامعة في مناسبات شتى . ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ اصطحبه في طريق ، فلم يترك هذه المناسبة دون أن يزوده بنصيحة غالية ، حفظها ابن عباس وأداها إلى الأمة الإسلامية ، لتصبح نوراً يستضيء به كل سائر في طريق الحق ؛ وهي تلك النصيحة الجامعة التي تؤكد في نفس كل مؤمن اليقين والثبات والتوكل على الله سبحانه ؛ وذلك قوله ﷺ لابن عباس : « يَا غُلَامُ . احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ . احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ . تَعَرَّفْ إِلَىٰ اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ . وَلَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ . جَفَّتِ الْأَقْلَامُ وَطُوِيَتِ

الصُّحُفُ »[1] .

وهنا موقف آخر من مواقف التربية في الحديث الشريف ؛ معاذ بن جبل - وهو فرد من أفراد المسلمين - يركب خلف النبي ﷺ وذلك شاهد من شواهد عديدة على تواضعه ﷺ وطيب نفسه ورحمته بالمؤمنين . ويصف معاذ هيئة ركوبه مع النبي ﷺ فيقول :

ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل .

وذلك يعني شدة قربه من النبي ﷺ - من باب المحبة والتكريم - كما يعني أنه وعى كلام النبي ﷺ وأثبت في ذاكرته كل حرف منه ، فلم يلتبس عليه شيء .

٢ - أسلوب التشويق :

لقد علمنا النبي ﷺ في هذا الحديث كيف تكون إثارة الإنتباه ، وكيف يتم إعداد المخاطب ، وتهيئة ذهنه لتلقي الحقائق والمعلومات ؛ وكان ذلك عن طريق النداء الذي بدأ هادئاً مترفقاً هكذا : « مُعَاذُ » بحذف حرف النداء

---

(١) أوردت الصيغة موجزة عن الحديث الذي رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس الذي قال حديث حسن صحيح فقد جاء بالحديث : « يا غلام ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن احفظ الله يحفظك . . . » ثم قال « إعلم إنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وأن الخلائق لو اجتمعوا على أن يعطوك شيئاً لم يرد الله أن يعطيكه لم يقدروا على ذلك وأن يصرفوا عنك شيئاً أراد الله أن يعطيكه لم يقدروا على ذلك قد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة فإذا سألت فسل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وإذا اعتصمت فاعتصم بالله واعمل لله بالشكر في اليقين وأعلم أن الصبر على ما تكره خير كثير فإن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا » .

الذي يدل على بعد المنادي . . فها معاذ قريب من النبي ﷺ ، ليس بينه وبينه إلا آخرة الرحل .

وهنا أجاب معاذ :

لبيك يارسول الله وسعديك .

ولكن النبي ﷺ سكت عنه ساعة أي لحظات ، لأن لفظ « ساعة » في الاستعمال القديم لم يكن يراد به تلك المدة الزمنية المحددة ، وإنما هي فترة من الوقت ، قد تطول أو تقصر . .

وكأنما كان هذا النداء الأول مجرد إشارة لمعاذ بأن النبي ﷺ يريد أن يفضي إليه بأمر . . وكان لابد لمعاذ حينئذ أن يفكر في هذا الأمر الذي يريد الرسول أن يخبره به . . ومن هنا أصبح مشغول الذهن بهذا التفكير . . فجاءه النداء الثاني من الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « يَا مُعَاذُ » بإثبات حرف النداء ، وكأن ذلك كان استحضاراً لعقله الذي شغله الفكر ، فأصبح بعيداً ، بينما الجسد حاضر قريب .

فأجاب معاذ متلهفاً على معرفة الخبر : لبيك رسول الله وسعديك ؛ وتلاحظ هنا أن معاذاً حذف حرف النداء في إجابته للنبي الكريم ، وفي ذلك تصوير لمحاولته المتلهفة للاقتراب من الحقيقة ، التي يناديه رسول الله ليخبره بها .

ولكن النبي ﷺ لم يجبه في هذه المرة أيضاً ، وإنما سكت ساعة أخرى . وكأننا بمعاذ قد بلغ به الشوق مداه ، وأصبح كله آذاناً صاغية ؛

حاضراً وذهناً متوقداً ؛ يريد أن يعلم ، وأن يعي ويحفظ ، وأن يفقه ويتدبر .

وبعد هذه اللحظات التي لابد أنها مرت على معاذ طويلة جداً ، جاءه النداء النبوي في هذه الصورة الموقظة جداً : « يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ » . وفيها جمع بين حرف النداء للبعيد - يا - وبين نسبته إلى أبيه ؛ وفي ذلك إشعار بأن الأمر خطير ، حقيق بمعاذ أن يستجمع له كل مشاعره ، وأن يقترب بعقله وقلبه من النبي ﷺ ليلقي إليه بهذا الأمر الخطير ، الذي يجمع حقائق الدين كله .

٣ - أسلوب الاستفهام :

ولم يكتف النبي ﷺ في تعليمه لمعاذ ، وإعداد عقله لتلقي هذه الحقيقة ، بهذا التشويق والإيقاظ الذي بلغ الغاية في امتلاك الشعور ، وإنما جاء تعليمه له أيضاً على طريقة السؤال والجواب : فقال : « هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ ؟ » .

وكان لابد لمعاذ أن يعلم - وهو عربي بليغ - أن الاستفهام هنا ليس على حقيقته ، فلا يراد منه أن يجيب عليه ، وإنما سأله النبي ﷺ ليزيده تطلعاً إلى تلقي الجواب . فأجاب معاذ : الله ورسوله أعلم .

وهنا جاء الجواب من النبي الكريم بقوله : « حَقُّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً » .

وأمامنا في هذا الجواب مسائل :

الأولى : ما معنى كلمة « حق » هنا ؟ .

إن الحق في الأصل كل موجود متحقق ، أوما سيوجد لا محالة . ويقال للكلام الصادق : حق ؛ لأن وقوعه متحقق لا تردد فيه . وكذا الحق الواجب على الغير – أي المستحق عليه – إذا كان لا تردد فيه .

والمراد بالحق هنا : ما يستحقه الله على عباده مما جعله محتماً عليهم .

نحدد هذا المعنى ، لأننا سنقف مرة أخرى أمام كلمة حق في الجملة الثانية من الحديث ، التي ستأتي بعد وهي قوله : « هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ الله » . وسنرى أن معنى الحق فيها يحتاج إلى تأويل ، بخلاف معنى الحق هنا .

الثانية : لابد لنا أن نلمس مغزى التعبير في هذا الحديث بقوله : « عَلَىٰ عِبَادِهِ » ولم يقل : على الناس . أو على البشر مثلاً . وهذا المغزى واضح للمتدبر .

فالتعبير عن الناس بأنهم عباد الله ، يفيد تأكد معنى الحق ، كما يثير في النفوس الطواعية والقبول . وهذه الكلمة : « عَلَىٰ عِبَادِهِ » تغني عن كثير من الحجج والجدال ، والسؤال عن أصل وجوب هذا الحق ؟ ولماذا وجب ؟ . فإذا عرف السامع أن هذا الحق واجب لله – الخالق الرازق – على عباده المخلوقين ، لم يعد أمامه إلا الاستسلام والخضوع .

كما لا يفوتنا هنا الأشارة إلى أن هذه الكلمة قرآنية ؛ نابعة من القاموس القرآني الفريد .

فالتعبير عن الناس بأنهم عباد الله ، يأتي كثيراً في القرآن الكريم : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوآ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ [1] . ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [2] . ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [3] . وغير ذلك في القرآن آيات تصل إلى سبع عشرة آية .

أما حق الله سبحانه على عبادة فقد جمعه النبي ﷺ في تلك الجملة الموجزة الدقيقة : « أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً » .

ونقول إن تلك الجملة التي جمعت حقيقة الدين كله ، كما أراده الله سبحانه ؛ لقد جمعت بين العقيدة والشريعة ، وبين الإيمان والطاعة والامتثال . وليس الدين في حقيقته إلا ذلك .

فقوله « أَنْ يَعْبُدُوهُ » يدل أولاً على معرفة الله سبحانه ، والإيمان بوجوده ، لأن العبادة لا تنشأ إلا عن اعتقاد ، ولا يمكن الإنسان أن يعبد إلا ما يعتقد بوجوده وقدرته .

والعبادة اسم جامع للطاعة المطلقة التي تتضمن اجتناب المعصية ، أو هي فعل وترك ، بل إن جانب الترك فيها أدل على الطاعة من جانب الفعل ،

---

(١) سورة العنكبوت : ٥٦ .

(٢) سورة البقرة : ١٨٦ .

(٣) سورة الإسراء : ٥٣ .

كما جاء في الحديث : « اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ »[1] .

ثم عطف على تلك العبادة قوله : « وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً » . وبهذا يتميز التوحيد الخالص عن الشرك وشوائب الاعتقاد ، فقد كان بعض الكفرة يزعمون أنهم يعبدون الله سبحانه ، ولكنهم كانوا يشركون في العبادة بعض خلقه ، ومن هنا كان حرص النبي ﷺ في هذا الحديث على نفي الشرك عن العبادة المتقبلة ، حتى تتمحض لله سبحانه ، وحتى يؤدي الإنسان ما عليه من حق لربه . كما قال سبحانه : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[2] .

وهذه الجملة أيضاً نابعة من القرآن الكريم ؛ إذ يقول سبحانه : ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾[3] .

ونحن نشير كثيراً إلى تأثير الحديث النبوي بالقرآن الكريم ، تأكيد لهذه الحقيقة ، وجمعاً لشواهدها ، حتى يقتنع بها الدارس ، وتبين الصلة بين الحديث الشريف ومصدره الأصيل ؛ وهو القرآن الكريم .

---

(١) العبادة شرعاً أن يفعل ماورد في الشرع من الأفعال فمنها قولية كقوله لا إله إلا الله محمد رسول الله ومنها بدنية كالصلاة والصوم والحج ومنها مالية كالزكاة فهذه الأفعال تسمى عبادة إذا فعلها لأجل الثواب وخوفاً من العقاب أما إذا فعلها بنية القيام بحقوق الربوبية فهي العبودية لله . فإذا فعل ما أمره الشرع كانت نتيجة العبادة ترك ما نهى الله عنه . أما ما جاء في الحديث « اتق المحارم تكن أعبد الناس » فأنت عابد بقيامك بالأفعال التي طلبها الشرع منك ولكن لم تبلغ قمة العبادة فتكون أعبد الناس إذا اتقيت المحارم ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ . العنكبوت : ٤٥ .

(٢) سوره البينه : ٥٣ . (٣) سورة النساء : ٣٦ .

وجملة : « وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً » جملة حالية . والتقدير : يعبدونه في حال عدم الإشراك به .

وهكذا يتضح لنا أن هذه الجملة من الحديث الشريف - التي صورت حق الله على عباده - قد جمعت في ألفاظها القليلة جوانب الإسلام جميعاً .

قال ابن حبان : عبادة الله إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب ، وعمل بالجوارح .

فإذا أضيف إلى تلك العبادة - بمعناها الجامع - توحيد الله سبحانه ، وإفراده بالعبادة ، وإخلاص الدين له ، فلا يبقى شيئاً من حقوق الله سبحانه - التي تضمنها دينه الحنيف - لم ترد في هذه الجملة الموجزة من هذا الحديث الشريف .

وترك النبي ﷺ معاذ بن جبل لحظات أخرى يستجمع فيها فكره في تدبر هذه الحقيقة ، ثم عاود نداءه لجمع انتباهه مرة أخرى فقال : « يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَل » وأجاب معاذ بالجواب نفسه ، الذي يدل على الطاعة والمحبة فقال : لبيك رسول الله وسعديك . فألقى الرسول الكريم بهذا الاستفهام المترتب على الحقيقة السابقة فقال : « هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ الله إِذَا فَعَلُوهُ » . قال معاذ : الله ورسوله أعلم . . فأجاب الرسول : « حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ الله أَلاَّ يُعَذِّبَهُمْ » .

وفي هذا الجزء الأخير من الحديث الشريف مسائل :

المسألة الأولى : ما معنى كلمة حق بالنسبة للعباد هنا ؟

ومعلوم أن الله سبحانه لا يجب عليه شيء ؛ فهو سبحانه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وقد أجاب عن ذلك القرطبي بقوله : حق العباد على الله ما وعدهم من الثواب والجزاء ، فحق ذلك وجب بحكم وعده الصدق وقوله الحق ، الذي لا يجوز عليه الكذب في الخبر ولا الخلف في الوعد . فالله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء بحكم الأمر ، إذ لا آمر فوقه ، ولا بحكم العقل ، لأن العقل كاشف لا موجب[1] . أ . هـ .

والذي أراه أن كلمة حق هنا إنما جاءت لمعنيين :

أولهما من باب المشاكلة : وهي تسمي الشيء باسم غيره إذا وقع في صحبته ، كقول الشاعر :

قالوا : اقترح شيئاً نُجْد لك طبخة

قلت : اطبُخوا لي جُبَّةً وقميصاً

فعبر عن خياطة الجبة بالطبخ ، مشاكلة لما جاء في الشطر الأول من البيت .

وهنا عبر عن جزاء العباد على طاعتهم بأنه حق ، مشاكلة لقوله : « أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ ؟ » والمعنى في الجملة الثاني : أتدري ما

---

(١) فتح الباري لابن حجر : ١٤/١٢٤ .

جزاء العباد عند ربهم – تفضلاً وكرماً منه – إذا هم وفوا له بحقه عليهم ؟.

أما المعنى الثاني الذي تشير إليه كلمة « حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ الله » فقد ورد في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [1] . وقوله : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [2] . وقوله : ﴿ إِنَّ الله اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [3] . وغير ذلك مما يفيد تفضل الله على عباده ووعده لهم بالثواب الجزيل ، ومتى جاء الوعد من الله فهو ثابت محقق ، فهو حق للعباد بفضل الله عليهم ، وليس حقاً بوجوب أو اشتراط منهم [4] .

٢ – **المسألة الثانية** : في هذا الجزء الأخير من الحديث : ما مغزى التعبير بقوله : « إِذَا فَعَلُوهُ » . ومعلوم أن الضمير – الهاء – يعود على ما تقدم من قوله : « أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً » ؟ وقد قلنا : إن العبادة إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب ، وعمل بالجوارح . فلماذا اقتصر هنا على العمل ؟.

والحق أن هذا لفظ مقصود الإيحاء ؛ ليعلم كل مسلم أن حق الله ليس

---

(١) سورة الأنعام : ٥٤ .
(٢) سورة الحاقة : ٢٤ .
(٣) سورة التوبة : ١١١ .
(٤) إن الله يفعل ما يشاء ولا راداً لحكمه فإذا فرض على نفسه أمراً فهو الآمر على نفسه لا الأمر عليه غيره فالحق يقتضي الوجوب والله لا يجب عليه شيء غير أن ذلك حق أوجبه هو على نفسه بحسب الوعد والحكم لا بحسب الاستحقاق والآيات كثيرة تؤيد ذلك فقال تعالى ﴿ كَذٰلِكَ حَقاً عَلَيْنا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . فهذا وعد ألزم نفسه به فلا غبار عليه .

كلمة تقال ، ولا أمنية طيبة في القلب ، وإنما هو في حقيقته عمل وجهد وجهاد ، كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوٓءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ (١) .

فالعمل هو المقياس الذي يقيس به القرآن مواقف العباد ويميز بين اتجاهاتهم . وقد كشف القرآن كثيراً من أمراض القلوب التي تظن أن القول يغني عن العمل ، وأن التمني يغني عن تحقيق الأمنية ، ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَآءُ اللهِ وَأَحِبَّآؤُهُ قُلْ : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ؟ ﴾ (٢) .

والكلام المعسول لا ينفع صاحبه إذا كان عمله مريراً ، كما قال الله سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ (٣) .

من هنا عبر هذا الحديث بالفعل دون القول ؛ لأن الفعل يتضمن القول ، ولا عكس ، وليرى كل مسلم أن أداء حق الله لا يتم بكلمات يرددها ولا شعارات يتشدق بها ، ولكنه فعل مخلص يكشف عن إيمان صادق ويقين لا يتزلزل .

٣ - **المسألة الثالثة** : أثار قوله : « أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ » . بحثاً بين علماء

---

(١) سورة النساء : ١٢٣ .

(٢) سورة المائدة : ١٨ .

(٣) سورة البقرة ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

الحديث ؛ حول مسألة تعذيب العصاة الموحدين ؛ فقد جاء في القرآن أنهم يدخلون النار كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ ﴾ [1] . وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ [2] .

وفي الحديث في شأن من أصاب حداً من حدود الله : « فَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذٰلِكَ شَيْئاً فَعُوقِبَ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذٰلِكَ شَيْئاً فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَهُوَ إِلَىٰ اللهِ . إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ » .

فكيف جاء في هذا الحديث : أن حق العباد على الله - إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً - ألاّ يعذبهم ؟ .

وقد سلك العلماء في التوفيق بين النصوص التي تقضي تعذيب بعض عصاة الموحدين ، وبين هذا الحديث مسالك مختلفة .

فرأى بعضهم أن هذا كان قبيل نزول الفرائض والحدود . وهذا قول الزهري .

ورد على هذا القول بعض العلماء بأن النسخ لا يدخل الخبر ، وإنما النسخ في الأحكام . وبأن معاذاً سمع هذا من النبي ﷺ متأخراً عن أكثر نزول الفرائض والأحكام .

أما مسلك الأصوب في هذا الموضوع ، فهو بيان أن عبادة الله تقضي

---

(١) سورة الفرقان : ٦٨، ٦٩ .

(٢) سورة النساء : ١٠ .

ترك معصيته [1] ، وتوحيده يقضي ترك الإشراك به ، والعذاب إنما يكون على الإشراك وعلى الكبائر ؛ فإذا آمن الإنسان وأطاع فمن أين يأتيه العذاب ؟ . والقرآن يقول : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ، وكانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً ﴾ [2] . وقد أشار إلى هذا المعنى وهب بن منبه في بيانه لقول النبي ﷺ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ » . فقال : ليس من مفتاح إلا وله أسنان .

نعم ، وأسنان المفتاح هي العمل الصالح المتوازن ، الذي يشمل جوانب السلوك الإنساني جميعاً .

ونقل ابن حجر عن بعض العلماء أنه قال في توجيه هذا الحديث : ليس ذلك - أي عدم تعذيب الموحدين - لكل من وحد وعبد . . بل يختص بمن أخلص ، والإخلاص يقتضي تحقيق القلب بمعناه . أي معنى شهادة أن لا إله إلا الله . أ . هـ . ولا يتصور حصول التحقيق مع الإصرار على المعصية ؛ لأن القلب إذا امتلأ بمحبة الله تعالى وخشيته ، انبعث الجوارح إلى الطاعة ، وانكفت عن المعصية .

وبعد ، فلو مضينا مع هذا الحديث في كل ما يثيره من قضايا ، وما

---

(١) العبادة : فعل ما أمر الشرع من الأفعال ومن نتيجتها ترك معصيته ويؤيد ذلك قول الله ﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾ والشكر كما وضحه الله بكتابه هو العمل عندما قال ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ وقال وهب بن منبه مفتاح الجنة هو العمل الصالح لا ترك المعصية فقط .

(٢) سورة النساء : ١٤٧ .

تحمله ألفاظه من إيحاءات لطال بنا الأمر . ولكننا نكتفي بهذه الإشارة الدالة ، واللمحات التي تكشف عن غيرها .

وصدق ﷺ حين قال : « أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَاخْتُصِرَ لِيَ الْكَلَامُ اخْتِصَاراً » .

النعم المضيعة

عن ابن عباس ن رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ :

« نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ؛ الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ » .

أخرجه البخاري في كتاب الرقاق [(١)]

بهذا الحديث الذي يعد من جوامع الكلم ، ومن الحكمة النبوية الصادقة ، التي سارت مسير المثل ، افتتح البخاري كتاب الرقاق من صحيحه .

والرقاق الرقائق جمع رقيقة . سميت هذه الأحاديث ، بذلك لأن في كل منها ما يحدث في القلب رقة .

والرقة : الرحمة . وهي أيضاً ضد الغلاظة ويقال للكثير الحياء : رق وجهه استحياءً .

وقال الراغب في مفرداته : متى كانت الرقة في جسم ، فضدها الصفاقة ؛ كثوب رقيق ، وثوب صفيق .

ومتى كانت في نفس ، فضدها القسوة ؛ يقال فلان رقيق القلب ، وفلان قاسي القلب .

وترقيق الكلام : تحسينه ، كما قال الجوهري .

(١) وكذا رواه أبو داود وأحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس الحسن ... وأبو نعيم ورواه الطبراني الكبير عن يزيد بن مجبر عن أبيه .

ولابد من أن نقف عند حس البخاري الدقيق وفهمه العميق ، الذي جعله يختار هذا الحديث ليبدأ به الكتاب من صحيحه .

فقد رأى في هذا الحديث شمولاً في معناه ، وعمقاً في أثره ، وتحريكاً لوجدان الإنسان من كل نواحيه . فهو لذلك أولى بالتقديم ، وأدعى لمطابقة عنوان الكتاب وسوف يتضح هذا من النظر في مضمون هذا الحديث .

١ - الألفـــاظ :

النعمة : بكسر النون : المسرة ، واليد البيضاء الصالحة ، كالنعمى - بضم النون - كذا في القاموس المحيط .

وقال ابن حجر في فتح الباري ١٤/ ٤ : النعمة : الحالة الحسنة .

وقيل : هي المنفعة المفعولة على جهة الإحسان للغير .

وقد جاءت كلمة نعمة في القرآن الكريم في أربع وثلاثين آية ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [١] . وقوله : ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [٢] .

وغير ذلك من آيات الكتاب الكريم . وكلها جاءت بالمعنى اللغوي ؛ وهو الحالة الحسنة ، أو الإفضال على جهة الإحسان والتكريم .

مغبون : اسم مفعول من غبنه في البيع يغبنه غبناً - بسكون الباء

---

(١) سورة البقرة : ٢١١ .

(٢) سورة الأنفال : ٥٣ .

وبتحريكها أيضاً .

وقال بعضهم : تسكين الباء في البيع ، وتحريكها في الرأي - إذا خدعه . وقد غبن كعني فهو مغبون . والإسم الغبينة . والتغابن : أن يغبن الناس بعضهم بعضاً . وفي القرآن : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾[1] .

ولم يرد في القرآن إلا هذه الكلمة من المادة .

٢ - موضوع الحديث :

أراد النبي ﷺ أن يوقظ وعي الإنسان بنعم الله عليه ، ويستحثه على شكرها والاستفادة منها ووضعها في مواضعها ، فاختار لذلك تلك الجملة الخبرية الموجزة ، التي تدخل إلى قلوب البشر من مدخل فسيح ؛ إذ تثير فيهم حب الكسب الذي فطر عليه الإنسان ، وتحذرهم من الغبن الذي لا يرضاه لنفسه عاقل .

وقد كان الكثير من الصحابة تجاراً ، بل كانت قريش تعتمد في معاشها على التجارة ، في رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، كما ذكر القرآن ، وكان كل فرد منهم يحرص على أن يكون رابحاً لا خاسراً ، وكاسباً لا مغبوناً .

فمن هذا الباب أتاهم هذا الحديث الشريف ؛ أنهم يحرصون على الربح في تجارتهم المادية المحدودة ؛ من أجله يرتحلون ، وفي سبيله يتكبدون المشاق . مع أن ربح التجارة متدارك ومقدور عليه ؛ فإذا خسر الإنسان في صفقة فقد يربح في أخرى ، وإذا لم يحقق ما يشتهي من

---

(١) سورة التغابن : ٩ .

الكسب في يوم ، فقد يدركه في آخر ، فما بال الناس - مع هذا الحرص الشديد على الربح ، وهذا الحذر الشديد من الغبن في حياتهم المادية - ما بالهم يرضون لأنفسهم الغبن في التجارة الكبرى التي لا تعوض فيها الخسارة ، ولا يتدارك فيها الأمر إن فات ؟! . إنها تجارة أخرى لا يلتفتون إليها ولا يتنافسون على الربح فيها ؛ تجارة الحياة ومسئولية الإنسان فيها ، والعمر وواجب الإنسان نحوه .

لقد انطلق الحديث في هذا المعنى من نداء قرآني ، استثار به القرآن المشاعر واستجمع الهمم ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

تلك هي الفكرة التي يقوم عليها الحديث ؛ تصوير طاقات الإنسان التي أنعم الله عليه بها ، وكيف تعد هذه النعم والمواهب رأس مال عظيم للإنسان ، ولكن العجيب أن الإنسان يهدر تلك النعم ، ولا يستثمرها في تجارة رابحة ومعاملة مأمونة مع الله سبحانه وتعالى .

وهذه الفكرة أيضاً تتضح في قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الصف : ١٠ ، ١١ .

(٢) سورة التوبة : ١١١ .

ولما نزلت هذه الآية قال بعض الصحابة : نِعْمَ البيعُ ! أنفس هو خالقها ، وأموال هو رازقها ، ثم يعطينا عليها الجنة [1] ! .

وحقاً قال ؛ فإن التجارة مع الله سبحانه رابحة ، ومعاملته سبحانه مضمونة الكسب ، إذا أخلص الإنسان في توجيه طاقاته ومواهبه لبلوغ رضوان الله وتحقيق طاعته .

ولكن المغبون حقاً من فاته الربح في تلك التجارة ، فلم يعامل ربه بطاعته وشكره وإخلاص الدين له .

٣ - طريقة التصوير :

هذا هو مضمون الحديث على وجه العموم ، وهذا هو الجانب الذي يدخل منه إلى القلوب ، وتلك صلته بمعاني القرآن وأساليب التوجيه فيه .

ولكن كيف أدى الحديث هذا المعنى ؟ وما ملامح الدقة في تعبيره الذي يمثل خصائص البلاغة النحوية ؟ .

أو ما نلحظه في الحديث : أنه بدأ بلفظ : « نِعْمَتَانِ » وهذه الكلمة تعرب مبتدأ . ثم أخبر عنها بجملة : « مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ » . المكونة من خبر مقدم هو مغبون ، ومبتدأ موجز هو كثير . وأصل الكلام : كثير من الناس مغبون فيهما .

---

(١) فالحق تعالى اشترى منا ما يملكه فالعبد وما ملكت يداه لسيده فأنفسنا وأموالنا ملكاً له فمن كرمه وجوده ملكنا أنفسنا وأموالنا واشتراها منا بثمن الجنة فما أكرمه من مشتري ؟ حاء ونسب إلينا ما خلقه ليشتريه منا وهذا أسمى ما في الكرم من رفعة .

وهذا التقديم والتأخير يكشف عن إيحاء الحديث ومقصده في التأثير ؛ فحين يبدأ بقوله : نعمتان ، فإن الاسماع والأبصار تتطلع إلى هاتين النعمتين ، ليرى كل إنسان هل يملكهما أم لا ؟ لأن الإنسان مفطور على حب الخير لنفسه ، والحرص على جلب المنفعة لها ، ولكن السامع يفاجأ بعد كلمة النعمة ، بكلمة الغبن ، وهذا ما يثير تطلعه جداً ، ليعرف كيف يقع الغبن في النعمة ؟ وعهده أن من يملك النعمة يحاول جهده أن يستزيد منها ويستثمرها .

ومما يزيد الموقف استثارة للشعور ، وحفزاً للتطلع ، أن هذا الغبن يصيب كثيراً من الناس لا قليلاً . فلعل السامع من هؤلاء الكثير .

وبعد أن يتهيأ للموقف تلك العناصر جميعاً ، يكشف الستار عن هاتين النعمتين ، اللتين يغبن فيهما كثير من الناس ، فإذا هما : الصحة والفراغ .

يأتيان خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هما الصحة والفراغ كأن سائلاً سأله : ما هما ؟ فأجيب بهذا الجواب . أو هما بدل من قوله : نعمتان .

ولعلنا بهذا التحليل لسياق الحديث ، نرى وجه الحكمة التعبيرية في أن الحديث لم يأت بغير هذا الترتيب ، فلو أنه قال : الصحة والفراغ نعمتان ، كثير من الناس مغبون فيها . لفقد القول تأثيره ، ولضاع منه عنصر التشويق ، واستثارة الذهن ليتطلع إلى المعرفة .

وإذا تكلمنا عن عنصر الترتيب المقصود ، أو نظم الحديث ، فلنقف عند لمسات تعبيرية أخرى .

ففي قوله : « نِعْمَتَانِ » قد يسأل المتأمل : لماذا جاء بلفظ المثنى ؟ . فلم يأت بالنعمة مفردة مثلاً ؟ . ولم يخص كل نعمة بالحديث ؟ .

وقد تفطن إلى ذلك بعض الأئمة الأقدمين رحمهم الله ، فهذا ابن الجوزي يقول في شرح هذا الحديث - كما ذكر ابن حجر في فتح الباري ٤/١٤ : قد يكون الإنسان صحيحاً ، ولا يكون متفرغاً ؛ لشغله بالمعاش . وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً ، فإذا اجتمعا ، فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون . أ . هـ .

فكأن كل نعمة منهما لو انفردت عن الأخرى ، فلا يتهيأ للإنسان رأس المال الذي يربح فيه ، في تجارته مع ربه ؛ فلو كان سليم الجسد ، ولكنه منهوك القوى في تحصيل قوته ، فإنه لا يجد فراغاً لمزيد من العبادة والاستكثار من عمل الخير ، وكذلك لو كان غنياً ولكنه سقيم الجسد ؛ لا يقدر على الإنطلاق في ميادين العمل الصالح .

وليس المراد بالفراغ هنا الفراغ المطلق عن العمل والاشتغال بالمعاش ، فهذا في نظر الإسلام لا يجوز ، ولكنه الوقت الذي يتبقى للإنسان بعد أداء الواجب الدنيوي المنوط به على الوجه الأكمل .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ [1] . أي إذا فرغت من أعباء الخلق ، فتفرغ لعبادة الحق .

ذلك مغزى جمع الحديث بين النعمتين . وفي هذا يقول ابن بطال

---

(١) سورة الشرح : ٧ .

معنى الحديث أن المرء لا يكون فارغاً ، حتى يكون مكتفياً صحيح البدن ، فمن حصل له ذلك فليحرص على ألا يغبن . أ . هـ .

أما قوله ﷺ : « مَغْبُونٌ » . فإنها - كما أشرنا من قبل - كلمة تحمل سر المعنى ، أوهي مفتاح التصوير في هذا الحديث ؛ فإنها هي التي يقوم على أساسها معنى كون النعم والمواهب رأس مال الإنسان في الحياة وجوده في هذه الدنيا .

وأن الحياة سوق يتاجر فيه الناس بأعمالهم ؛ فمنهم الخاسر ومنهم الرابح .

وفي هذه الجملة استعارة مكنية ؛ حيث شبه النعم والمواهب برأس المال الذي يتاجر فيه الإنسان ، ثم حذف المشبه به وأسند بعض لوازمه إلى المشبه ، وهو الغبن ، لأن الغبن لا يكون إلا في تجارة . وفي ذلك يقول الطيبي في شرحه للحديث : ضرب النبي ﷺ للمكلف مثلاً بالتاجر الذي له رأس مال ، فهو يبتغي الربح في سلامة رأس المال ، فطريقه في ذلك أن يتحرى فيمن يعامله ، ويلزم الصدق والحذق لئلا يغبن . فالصحة والفراغ رأس مال ، وينبغي له أن يعامل الله بالإيمان ومجاهدة النفس وعدو الدين ، ليربح خيري الدنيا والآخرة ، وعليه أن يتجنب مطاوعة النفس ومعاملة الشيطان ، لئلا يضيع رأس ماله مع الربح [1] .

---

(١) فتح الباري : ١٤/ ٤ .

٤ - التأثر بالقرآن :

وقد أشرنا فيما مضى إلى أن فكرة الغبن في التجارة في هذا الحديث ، صادرة من معنى قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ ﴾ [١] . وغير ذلك من الآيات في القرآن .

ونشير هنا أيضاً إلى أن قوله : « كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ » . متأثر بقوله سبحانه ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [٢] .

فالكثير من الناس لا يشكرون نعم الله ، فهم مغبونون . وقليل منهم يشكرون ، فهم الرابحون .

وهكذا كان القرآن الكريم هو المنبع الأصفى الذي استقى منه الرسول ﷺ بيانه العذب ، وحكمته الرائقة ، وصوره المعبرة الرائعة .

وصدق الله سبحانه : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٣] .

---

(١) سورة الصف : ١٠ .

(٢) سورة سبأ : ١٣ .

(٣) سورة النحل : ٤٤ .

من أدب الدعاء النبوي

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي ﷺ يدعو في الليل فيقول :

« اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .

لَكَ الْحَمْدُ . . أَنْتَ قَيِّمُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ .

لَكَ الْحَمْدُ . . أَنْتَ نُورُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ .

قَوْلُكَ الْحَقُّ ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ . . وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ .

وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، والسَّاعَةُ حَقٌّ .

اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ .

وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، أَنْتَ إِلٰهِي ، لَا إِلٰهَ لِي غَيْرُكَ » .

رواه البخاري في صحيحه (١)

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم باب التجهد رقم ٧٦٩ والموطأ ٢١٥، ٢١٦ عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة في جوف الليل يقول « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أن قيام السموات والأرض ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن .

أنت الحقُ . ووعدُك الحقُ . وقولُك الحقُ .

ولقاؤك حقٌ والجنة حقٌ والنار حقٌ والساعة حقٌ . . . » الخ وفي بعض الروايات « النبيون حقٌ ومحمد حقٌ » وفي بعض الروايات (أنت المقدم وأنت المؤخر) .

١ جو الحديث :

كان قيام الليل فريضة على الرسول ﷺ خاصة دون المؤمنين ، كما جاء ذلك في قوله سبحانه : ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ (١) .

ذلك ليستعد لما يلقي عليه من عبء ثقيل ، وما يتحمله من مهام جليلة . وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ (٢) .

وواظب الرسول الكريم على قيام الليل في مكة ؛ حيث كان الإيذاء والاضطهاد والتكذيب من المشركين . وكان قيام الليل هو الأفق الرحيب الذي يستمد منه الرسول ﷺ القوة على المضاء في الدعوة والصبر على مشقاتها .

كما واظب عليه في المدينة ، مع كثرة شواغله وازدياد أعبائه ؛ من الجهاد وتأسيس المجتمع الإسلامي ، وتدبير أوضاعه وعلاقاته ، ورد أذى المنافقين وكيد اليهود ، وغير ذلك مما أضطلع به النبي ﷺ في السنوات العشر التي عاشها في المدينة ؛ منذ هاجر إليها ، إلى أن لحق بالرفيق الأعلى . مع هذا الجهد الشديد والعمل الدائب ، لم يترك النبي ﷺ قيام الليل ، حتى عندما تورمت قدماه ، وقالت له زوجته عائشة رضي الله عنها : أليس الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! . فقال : « أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً » ؟ .

---

(١) سورة المزمل : ١ - ٤ .

(٢) سورة المزمل : ٥، ٦ .

في هذا الجو الطاهر . . وفي تلك الحجرات المضيئة بنور التقوي والإيمان ، البعيدة عن الزخارف وفضول العيش ، كان النبي الأمين ﷺ يقوم في جوف الليل فيناجي ربه ، ويتلو كتابه ، فلا عجب أن ينطق ﷺ بهذه الأدعية ، التي بلغت الذروة في قوة العاطفة وحرارة الشعور ، وفي جمال اللفظ ورقة الأسلوب ، ومواءمته للفكر ، وانسيابه مع امتياز العاطفة الصادقة ، مما يمثله هذا الحديث الذي اخترناه نموذجاً لهذا اللون الكريم من أدب الدعاء في الحديث الشريف .

٢ - أقسام الحديث :

احتوى هذا الحديث أقساماً خمسة :

١ - بدأ بالحمد في جمل ثلاث .

٢ - ثم انتقل إلى الإقرار وتأكيد الشهادة بعقائد الإيمان ، من قوله : « قَوْلُكَ الْحَقُّ » إلى قوله : « وَالسَّاعَةُ حَقٌّ » .

٣ - وبعد هذا الإقرار انتقل إلى إعلان إسلام وجهه لله ، وإيمان قلبه به ، وتوكله عليه ، وخضوعه له ، ولجوئه إلى قوته واستعانته به على عدوه ، ورضاه بحكمه .

٤ - ثم يأتي الدعاء بعد هذا التمهيد ، الذي يدل على الحمد والإيمان والتوكل والخضوع . فما أحرى صاحبه أن يغفر له ، وترفع درجاته . ومن هنا جاء قوله : « فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ » .

٥ - ثم كانت الخاتمة ؛ تلك الجملة الموجزة التي تلخص معاني الحديث كله : « أَنْتَ إِلٰهِي لاَ إِلٰهَ لِي غَيْرُكَ » .

١ - **جوامع الحمد :**

« اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ » .

بدأ بالنداء اقتباساً من القرآن الكريم في مثل قوله سبحانه ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ ﴾ [١] . إذ أن هذا الحمد خالص لله ، متجه إليه ، فقدم له بالنداء الذي يستجمع مشاعر العبادة ، ويقف صاحبه في مقام العبودية . . « لكَ الْحَمْدُ » بتقديم الخبر شبه الجملة « لَكَ » على المبتدإ وهو « الْحَمْدُ » لإفادة الاختصاص وقصر الحمد على سبحانه ؛ إذ هو وحده المستحق له ، لأن النعم كلها منه سبحانه : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [٢] .

وهذا الأسلوب أيضاً من أساليب القرآن ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [٣] .

أما سبب الاختصاص بهذا الحمد ، فقد وضحه الرسول بقوله : « أَنْتَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ » .

---

(١) سورة آل عمران : ٢٦ .

(٢) سورة النحل : ٥٣ .

(٣) سورة الجاثية : ٣٦، ٣٧ .

ورب كل شيء : كما جاء في القاموس : مالكه ومستحقه أو صاحبه [1] .

والله سبحانه هو خالق السموات والأرض على غير مثال سابق ، كما قال سبحانه : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [2] .

فهو ربهن ورب من فيهن ؛ من مخلوقات عاقلة أو غير عاقلة . وإنما عبر بمن الدالة على العقلاء ، لأنه إذا ثبت أنه سبحانه رب العقلاء في السموات والأرض ، فهو رب لغير العقلاء من باب أولى ، فالكل خلقه ، والكل في ملكه وتحت سلطانه .

واستحقاقه سبحانه الحمد - بسبب خلقه للسموات والأرض ومن فيهن - ظاهر لا يحتاج إلى استدلال ، فليس وراء ذلك نعمة شملت السموات والأرض ومن فيهن ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نعمةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ . إنها نعمة الايجاد وما استتبعه من رزق وتدبير ورحمة ولطف . . . ولهذا بدأ الحديث الشريف بالحمد على تلك النعمة التي تفرعت عنها النعم جميعاً . « وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ » . وفي رواية : « قَيّامُ » وفي رواية أخرى : « قَيُّومُ » .

والقيم : القائم بأمور الخلق ومدبرهم ، ومدبر العالم في جميع

---

(١) الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية وهي تبليغ الشيء كماله حسب استعداده الأزلي شيئاً فشيئاً ورب كل شيء هو أن ما في ذرة من ذرات الكون إلا في حيطة تربيته فلو انقطع آثار التربية عنه آناً واحداً لما استقر ولأصبح في طي العدم .

(٢) سورة البقرة : ١١٧ .

أحواله . والقيوم : هو القائم بنفسه مطلقاً ؛ دون اعتماد على غيره ، ويقوم به كل موجود ، حتى لا يتصور أن يوجد شيء ، ولا أن يدوم وجوده إلا به [1] .

وهو سبحانه يستحق الحمد على هذه النعمة الجليلة ؛ نعمة التدبير ، ورعاية الخلق ، والقيام على ما يصلحهم ، إذ أنه سبحانه لم يترك الخلق سدى ، ولم يخل بينهم وبين أنفسهم ، خلافاً للفلسفات الباطلة ، التي تزعم أن الخالق سبحانه لا يعلم أحوال خلقه !! لأنه بزعمهم لا ينبغي للقديم أن يعرف أحوال المحدثين .

أما التصور الإسلامي الواضح في الكتاب والسنة ، فهو على العكس من تلك الفكرة الباطلة ، فالآيات التي تتحدث عن التدبير الإلهي لأمور الخلق ، كثيرة في الكتاب الكريم . كقوله سبحانه : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [2] .

ويكفي في إدراك آثار التدبير الإلهي للسموات والأرض ، قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [3] .

ومن هنا نرى تتابع الفكرة على نسق مرتب في هذا الحديث ، فبدأ بالخلق ، ثم أتبعه بالتدبير ؛ لأن الخلق - كما أشرنا من قبل هو النعمة

---

(١) إرشاد الساري : جـ ١٠ / ص٣٦٩ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٥ .

(٣) سورة فاطر : ٤١ .

التي قامت على أساسها كل النعم ، والتدبير هو العلاقة الدائمة بين الخالق سبحانه ومخلوقاته ، حتى يقضي سبحانه فيها ما يشاء .

ومن التدبير الشامل لأحوال المخلوقات ، ينتقل بنا الحديث إلى جوانب من هذا التدبير فيقول : « وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » . وهي جملة مقتبسة من الآية الكريمة ، في قوله سبحانه : ﴿ اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ [1] . ويقال فيها ما قيل في تلك الآية .

قال القسطلاني في شرحه على صحيح البخاري : أي ذو نور السموات ونور الأرض . وأضاف النور إليهما للدلالة على سعة إشراقه وفشوِّ إضاءته ، حتى تضيء له السموات والأرض . وجاز أن يراد أهل السموات والأرض وأنهم يستضيئون به . أ . هـ .

والذي يظهر أن المراد بهذا التعبير الهداية والتوفيق ؛ لأن النور الحسي الذي ينبعث من ضوء الشمس والقمر والنجوم ، يقابله نور معنوي يتمثل في كشف الحقائق ، وبيان الطريق والهداية للتي هي أقوم .

وهذا النور مصدره الوحي الإلهي ، كما قال سبحانه : ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [2] .

---

(١) سورة النور : ٣٥ .

(٢) سورة المائدة : ١٥، ١٦ .

فالنور الحسي المعنوي نعمة من الله سبحانه ؛ أضاء لهم بها سبل الحياة والهداية والإيمان ، لذلك أثار الرسول ﷺ عاطفة الحمد لتتجه إلى شكر المولى العظيم على تلك النعمة الجليلة[1].

٢ - شهادة وإقرار :

بعد هذا الحمد الذي تتفجر منه العاطفة المؤمنة ، يتجه الرسول صلوات الله عليه إلى إعلان العقائد الثابتة التي تستقر في قلب المؤمن ، لأن الحمد يكون بالقول والعمل ، بالإيمان والتحقيق فهنا يعلن ما يؤمن به حتى يكون من الحامدين حقاً : « قَوْلُكَ الْحَقُّ » . والمراد بهذا القول كل ما أوحاه الله إلى عباده المرسلين ؛ مما يتضمن الدين الحق ، والوعد والوعيد ، وكل ما أخبر الله سبحانه به . وهذا القول حق ، أي ثابت لا يقبل النقض أو الانتفاء[2] ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾[3] .

---

(١) أن الله جل شأنه سمى نفسه بالنور ، وهو بنوره غير المتناهي ، ظاهر بذاته ومظهر لغيره كما جاء في رسالة مشكاة الأنوار لحجة الإسلام الغزالي وبنوره هدى أهل السموات والأرضين ويؤيد ذلك ما رواه البيهقي عن ابن عباس أنه قال : (الله نور السموات والأرض هادي أهل السموات والأرض) وجعل نبيه محمد ﷺ نوره المفاض على العالم عندما قال : ﴿ لقد جاءكم نورٌ وكتاب مبين ﴾ .

(٢) كافة الروايات الصحيحة ذكرت (أنت الحق) فلابد من الوقوف على معنى الحق الذي هو مدار الحديث الشريف فالحق اسم من أسماء الله الحسنى بمعنى الثابت الموجود سرمداً لا بدء لوجوده ولا نهاية له فهو الثابت لذاته وصفاته والموجد الخلق بما تقتضيه منتهى الحكمة فكل ما أوجده حق أقيم على وجه يقتضي الكمال المطلق والحق المطلق لا يصدر منه إلا حقاً . وليس للخلق استقلال حتى يكون حقاً فانفرد الله باسم الحق لأن له وجوب الوجود بنفسه وما أعطى الحق لغيره إلا لأنه أعظم مظاهر لقدرته وبه ظهرت الجنة والنار والملائكة والنبيون ومحمد ﷺ .

(٣) سورة الحاقة : ٥١ .

« وَوَعْدُكَ الْحَقُّ » فلا شك فيه ولا خُلْفُ : وهذا تخصيص بعد تعميم ؛ لأن الوعد الإلهي للمؤمنين بالثواب ، إنما هو جزء من القول الإلهي الذي أوحاه الله إلى أنبيائه .

« وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ » . وهذا كناية عن القيامة بكل ما فيها . وهو استعمال قرآني ورد في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾ (١) .

ومن هنا لا يقتصر الأمر على رؤية الله سبحانه ، كما فهم ذلك القسطلاني ؛ حيث قال : أي رؤيتك في الدار الآخرة حيث لا مانع .

ذلك لأن كلمة (لقاء الله) قد وردت في القرآن بالمعنى الشامل للقيامة ، وما فيها من حساب وجزاء ، كقوله تعالى في سورة الأنعام : ٣١ :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ اللهِ » .

وأيضاً في سورة يونس : ٤٥ :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .

وفي سورة الروم : ٨ :

﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ .

وفي سورة الكهف : ١١٠ :

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ .

---

(١) سورة يونس : ٧ .

ولهذا يعقب الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذا الإقرار الجامع لكل ما في الآخرة بقوله : « وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ ». فكأنه تخصيص بعد تعميم ، كما رأينا من قبل في قوله : « وَقَوْلُكَ الْحَقُّ ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ » . ولا تفسير لذلك إلا أن العاطفة الإيمانية المتأججة التي كانت وراء هذه المناجاة الخاشعة ، كانت تدفع اللسان إلى التعبير عما تؤمن به من حقائق الإيمان ومبادئه فلا تقنع بالإجمال ، بل تتبعه بالتفصيل .

٣ - عبادة وإذعان وتوكل :

وفي هذا الجزء من الحديث الشريف ، نرتقي إلى أفق أعلى من مجرد الإقرار أنه الاتجاه العملي ، والسلوك المطابق لحقائق الإيمان .

وقد قلنا من قبل أن الحمد يكون بالجنان . وباللسان ، ثم تصدقه الجوارح في الأفعال . فلا عجب بعد التعبير عن مشاعر الحمد الخالص ، ثم عن الإقرار الواثق - أن يعبر الرسول الكريم عن الاتجاه - بكل قواه وأعماله - والالتجاء - في كل ما ينوبه وما يعترضه إلى ربه سبحانه ، المستحق للحمد كله ، والمدبر للأمر كله .

« اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ » .

والإسلام هو الانقياد ، وهو التسليم . قال في القاموس :

وأسلم : انقاد وصار مسلماً . وأسلم أمره إلى الله تعالى سلمه . أ . هـ .

فهنا يعلن الرسول ﷺ في مناجاته لربه سبحانه ، أنه أسلم أمره كله له ؛ أي فوض إليه سبحانه التدبير ، ورضي بما يحكم به .

وهذا المعنى هو المقصود هنا ، بدليل ما يجيء بعده من الإيمان والتوكل والمخاصمة والمحاكمة إلى الله سبحانه .

أما القسطلاني ، فإنه جعل معنى الإسلام هنا هو الانقياد للأمر والنهي [1] .

ولا مانع أن يكون هذا المعنى مفهوماً ضمنياً من المعنى الأعم ؛ وهو التسليم والتفويض .

ولا يخفى أن تقدم الجار والمجرور على متعلقه في هذه الجمل المتتابعة : « لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ » ألخ . يفيد معنى الاختصاص ، فليس هناك من يتجه إليه بهذه المشاعر الخالصة غير الله سبحانه .

« وَبِكَ آمَنْتُ » أي صدقت بك ، وبما أنزلته على أنبيائك من وحي ، لأن الإيمان بالله سبحانه يستلزم الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وبعد الإسلام والإيمان يأتي التوكل نتيجة لازمة لصدق الإيمان كما قال سبحانه :

---

(١) إرشاد الساري جـ ١٠ /ص ٣٧٠ .

﴿ اللهلاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [1] .

والتوكل هو تفويض الأمر إلى الله سبحانه ، بعد الأخذ بالأسباب ، لأن التسبب لا ينافي التوكل ، بل إن الامتناع عن الأخذ بالأسباب – مع ادعاء التوكل – إنما هو التواكل الذي عابه الإسلام .

« وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ » . رجعت مقبلاً بقلبي عليك . وأصل الفعل أناب من النوب ، ومن معانيه القوة والقرب .

قال في القاموس : وناب إلى الله : تاب ، كأناب . أ . هـ .

وقد وردت هذه اللفظة في القرآن في صيغة الفعل ثماني مرات ، كقوله تعالى ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [2] . وقوله : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ [3] . وقوله في سورة الشورى : ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [4] .

كما جاءت في صيغة اسم الفاعل في ست مواضع من القرآن ، كقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ [5] .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ [6] .

ويمكننا أن نقول : إن هذه الكلمة بهذا المعنى من الكلمات القرانية التي عرفتها لغة العرب لأول مرة بهذه المعنى الخاص ، الذي يمثل صلة العبد المؤمن بربه .

---

(١) سورة التغابن : ١٣ .
(٢) سورة لقمان : ١٥ .
(٣) سورة صَ : ٢٤ .
(٤) سورة الشورى : ١٠ .
(٥) سورة هود : ٧٥ .
(٦) سورة سبأ : ٩ .

وينشأ عن التوكل والإنابة أن يستعين المؤمن بقوة ربه العظيم في كل أمر وأن يعتمد على معونته في كل نازلة .

« وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ » .

قال القسطلاني : أي آتيتني من البراهين والحجج خاصمت من خاصمني من الكفار . أ . هـ .

ولكني أرى أن الأمر لا يقتصر هنا على الحجج والبراهين ، وإنما هو تعبير يصور معنى الاستعانة المطلقة ؛ كما يردد كل مسلم في صلاته ، وكلما قرأ في فاتحة الكتاب : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » .

فالمؤمن الحق يعتمد ، في جهاده وكفاحه في سبيل الحق ، على قوة ربه سبحانه ، وليس المراد بالمخاصمة المجادلة والمناظرة فحسب ، وإنما هي كل وقفة أمام أعداء الدين ، وكل محاولة للمبطلين .

وكذلك قوله : « وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ » لا يقتصر على هذا المعنى الذي ذكره الشراح ؛ من محاكمة كل من أبى قبول ما أرسلتني به ، وإنما يعني الرجوع إلى شريعة الله تعالى في كل حكم ، والاستمداد منها في كل قضية ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [1] .

٤ - الدعـــاء :

وهنا يأتي الدعاء طيّعاً ؛ ينساب في خشوع ورجاء .

---

(١) سورة النساء : ٦٥ .

بعد الحمد الجامع ، والإقرار الواثق ، والعبادة المنيبة . والدعاء في هذا الحديث مناسب لجو العبادة والطهر والنقاء . . مناسب للتجهد بالقرآن في جوف الليل .

فهو لا يتناول شيئاً من أمور الدنيا - وإن كان لاحرج في طلب خير الدنيا والآخرة على المؤمن - وإنما يقتصر على ما يناسب هذه الرؤية الإيمانية ، وهذه اللمحة المضيئة .

فيقول الرسول الكريم :

« فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ » .

« فَاغْفِرْ لِي » يقول شراح البخاري : إن الرسول ﷺ قال ذلك تعليماً لنا : أو من قبيل التواضع .

وفي القرآن الكريم : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ (١) .

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (٢) .

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٣) .

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال : « تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُهُ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ » .

والحق أن موضوع الاستغفار يقوم على أساس كونه ﷺ بشراً وهو إن كان

---

(١) سورة النصر : ٣ .

(٢) سورة الفتح : ٢ .

(٣) سورة محمد : ١٩ .

معصوماً من الوقوع في المعاصي ، إلا أنه علمنا أن كل بشر يحتاج دائماً إلى تطهير قلبه ، ودوام الإنابة إلى الله سبحانه .

وهنا نجد أن الدعاء النبوي في هذا المقام أوسع ما يكون التفصيل ؛ لأن مقام الطلب من الله سبحانه مقام محبوب للمؤمن ؛ فهو يتلذذ بالاستمداد من الله سبحانه والرجاء في عفوه .

لهذا يقول : « فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ » .

والجملة الأولى مقتبسة من قوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [1] . أي ما كان في أول الحياة وما كان في آخرها . وأما الجملة الثانية فهي مأخوذة من قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [2] .

وآيات أخرى بهذا اللفظ والمعنى في كتاب الله .

وهكذا نرى أثر القرآن واضحاً في البيان النبوي ؛ في ألفاظه ومعانيه .

ومضمون هذا الدعاء : طلب المغفرة الشاملة التي لا تبقي شيئاً يؤاخذ به العبد ، فهي تمحو كل إساءة - بالنسبة للمؤمنين - وتجعل صفحة العبد بيضاء نقية .

---

(١) سورة الفتح : ٢ .

(٢) سورة النحل : ١٩ .

٥ – **تعقيب أخير :**

« أَنْتَ إِلٰهِي لَا إِلٰهَ لِي غَيْرُكَ » .

والإله هو المعبود بحق . وقد تضمنت هذه الجملة بيان التوحيد الخالص ؛ الذي ينتهي إليه المؤمن بالدليل الواضح . وهذا التعقيب يأتي بعد الدعاء الذي يرجو المغفرة التامة . . ومن أولى بالمغفرة من الإله الذي لا إله غيره .

﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ﴾ (١) .

ومن هنا يحس المتأمل في هذا الحديث الشريف وحده الشعور الذي يثيره في نفس السامع ، وتدرجه في التعبير عن العاطفة شيئاً فشيئاً ، حتى ينتهي إلى الغرض المقصود .

وذلك هو الجدير حقاً بمن أوتي جوامع الكلم ، ومن نزل عليه القرآن ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٥ .

(٢) سورة الشعراء : ١٩٥ .

تعقيب هام : جاء بنص الحديث التي اتفق على روايته مسلم والبخاري والموطأ أنه رسول [illegible] عرّف الثلاثة الأول « أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق » ونكّر الأربعة الأخيرة « [illegible] حق والجنة حق والنار حق والساعة حق » لماذا ؟ .

الجواب : أن رسول الله ﷺ عرّف الثلاثة الأولى لأنها تتعلق بذات الحق وصفاته [illegible] فهي ثابتة بالأصالة فلا تحتاج لمعرف لها وهي ذاتية في الحق وليست إضافية [illegible] تكن بينها الأربعة الأخيرة فهي مخلوقة وحقيقتها ثابتة بغيرها ومفتقرة بوجودها [illegible] وامداده وأن الألف واللام إذا دخلت على الخبر أفادت الحصر .

لَا يُكَلِّمُهُمُ الله

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : رَجُلٌ عَلَىٰ فَضْلِ مَاءٍ بِالطَّرِيقِ ، يَمْنَعُ مِنْهُ ابْنَ السَّبِيلِ . وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَاماً لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَاهُ ؛ إِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا مَا يُرِيدُ وَفَىٰ لَهُ ، وَإِلَّا لَمْ يَفِ لَهُ . وَرَجُلٌ يُبَايِعُ رَجُلًا بِسِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ ، فَحَلَفَ بِالله لَقَدْ أُعْطِيَ بِهَا كَذَا وَكَذَا . فَصَدَّقَهُ فَأَخَذَهَا . وَلَمْ يُعْطَ بِهَا »[1] .

أخرجه البخاري في صحيحه

وهو في إرشاد السماري للقسطلاني

١ - موضوع الحديث :

يصور هذا الحديث ثلاثة نماذج للشخصيات المنحرفة ، التي

---

(١) للحديث عدة روايات وأقربها ما رواه أحمد في مسنده والترمذي وأبو داود وابن ماجه وابن جرير عن أبي هريرة « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : رجل كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل ورجل بايع اماماً لا يبايعه إلا لدنياه إن أعطاه منها ما يريد رضي وإن لم يعطه منها سخط ورجل أقام سلعة بعد العصر فقال والله الذي لا إله غيره لقد اعطيت بها كذا وكذا فصدقه رجل فأخذها ولم يعط بها » وكلهم قالوا حديث صحيح .

(٢) إرشاد الساري ١٠/٣٦٦ .

استعبدتها المطامع ولعبت بها الأهواء ، وصارت المنفعة المادية هي اللغة الوحيدة التي تفهمها ، أو هي المنظار الذي تنظر من ورائه إلى الحياة ، والمقياس الذي تحدد على أساسه صلاتها بالحياة والأحياء .

إنهم ثلاثة تختلف مسالكهم من حيث النوع ، ولكن الأثرة تجمع بينهم وتؤلف بين قلوبهم ، والحرص والجشع يطغى عليهم جميعاً ، فلا يترك لهم فرصة لإسداء الخير ، ولا يجعل في طاقاتهم فعل المعروف .

فإذا أنعمنا النظر في هذه النماذج الخبيثة للانحراف المادي ، وجدنا قلوب هذا لصنف من الناس خالية من حقيقة الإيمان ، بعيدة عن التصور الإسلامي للكون والحياة . ومن هنا فلا مجال لاستهوال هذا العقاب الأليم الذي استحقه هؤلاء ، والذي يفجأ أبصارنا وأسماعنا في مطلع هذا الحديث ، الذي يبلغ الغاية في التحذير من هذا الطريق المليء بالشقاء المؤدي إلى الهلاك .

٢ - بداية مثيرة :

يبدأ الحديث بقوله ﷺ : « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » فيستلفت الأنظار ، ويشد إليه القلوب والأسماع .

كل منهم يمثل لوناً من ألوان الأثرة والشح والاحتيال .

ومن هنا يحرص كل سامع لهذا الحديث أن يعرف من هؤلاء الذين استحقوا هذه اللعنة ، وهذا العذاب الأليم .

لقد استحقوا غضب الله سبحانه كما يفيد ذلك التعبير بقوله : « لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ » لأن عدم التكلم كناية عن الغضب والإعراض [1] .

قال القسطلاني : لا يكلمهم كلاماً يسرهم ، ولكن يكلمهم بمثل قوله : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا ﴾ [2] . أو لايكلمهم بشيء أصلاً . والظاهر أنه كناية عن غضبه عليهم [3] .

« وَلاَ يُزَكِّيهِمْ » أي لا يثني عليهم . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [4] .

والمعنى الآخر للتزكية هو التطهير كقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴾ [5] . وقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ [6] . وقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ ﴾ [7] .

---

(١) اختلفت روايات هذا الحديث فرواية أوردت « لا ينظر إليهم » ورواية « لا يكلمهم » وغيرها « لا ينظر إليهم ولا يكلمهم » وكلها تعبر عن احتجاب الحضرة الإلهية عن عباده كناية عن السخط عليهم وأعظم عقوبة للعبد في الآخرة احتجاب الحق عنه فقدم الاحتجاج عن أية عقوبة أخرى عن الفجار فقال : ﴿ كلاَّ إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾ ثم قال : ﴿ ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾ وثم تفيد التراخي فهو يشير ان أعظم عقوبة هو الأعراض عن العبد وبعدها بمراتب تأتي صليان الجحيم ، فظهوره لعباده هي الرحمة العظمى التي تطغى بجمالها وعظمتها على كل عذاب وآلام لذلك حرموا هذه النعمة .

(٢) سورة المؤمنين : ١٠٨ .

(٣) إرشاد الساري جـ١٠ / ص٣٦٦ .

(٤) سورة النجم : ٣٢ .

(٥) سورة الأعلى : ١٤ .

(٦) سورة الشمس : ٩ .

(٧) سورة التوبة : ١٠٣ .

والمعنى الأول هو الذي يرد هنا ؛ لأن المقام مقام حساب وجزاء لا مقام إصلاح وتطهير ، بدليل قوله بعد : « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

فقد بدأ العقاب متدرجاً يدل أوله على آخره ، غضب وإعراض : يدل عليه عدم التكلم . عدم الثناء . وهو يدل على الذم والتوبيخ . ثم العذاب الأليم على ما قدموه من خطايا .

وهذه الجملة أقتباس من القرآن الكريم إذ جاء في سورة البقرة سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الآية : ١٧٤ .

وهذا الاقتباس من الشواهد العديدة التي تثبت أن الحديث الشريف قد تأثر بالقرآن الكريم في لفظه ومعناه .

أما النموذج الأول من هذه النماذج اللعينة فهو :

« رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بَالطَّرِيقِ ، يَمْنَعُ مِنْهُ ابْنَ السَّبِيلِ »

وإنما بدأ به ، لأن أثرته الشديدة ونضوب الخير من نفسه ظاهر للعيان ، حتى لم يبق في قلبه أثر للرحمة والمحبة لبني الإنسان ؛ فهو يملك ماء زائداً عن حاجته ، وهو في طريق المسافرين ، لكنه لا يرق لآلامهم ، ولا يرعى حرمة الحياة الإنسانية ، فيضن بفضل الماء على المسافر العطشان ، الذي هو أحوج ما يكون إليه .

والحديث يكني عن هذا المسافر بأنه (ابن السبيل) وهي [illegible]

جاءت في قوله تعالى : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ [1] . وهو عابر الطريق الذي لا مأوى له .

قال في القاموس : وابن السبيل : ابن الطريق . أي الذي قطع عليه الطريق .

يريد أنه فني زاده وأصبح غير قادر على التوجه إلى موطنه أو الرجوع إلى أهله ، فأصبحت نسبته إلى الطريق فقيل : ابن السبيل .

وهو تعبير محرك للشعور ، جالب للعطف والرحمة به ، فما ظنك بمن يمنع عن هذا البائس ، الذي انقطع به الطريق ، شربة ماء ، وهو يملك من الماء ما يزيد عن حاجته ؟ .

لا جرم أنه يستحق هذا اللعن وهذا الغضب ، وهذا العذاب الأليم الذي تضمنه الوعيد الصادق في صدر هذا الحديث .

إن بخله بشربة الماء هذه - رغم قيمتها المادية القليلة - قد أورده موارد الهلاك ؛ لأن من بخل بالقليل الهين ، مع عدم حاجته إليه ، فهو بالكثير ذي القيمة الكبيرة أبخل .

وإن هذا البخل قد كشف عن معدن نفسه ، وأظهر سوء طويته ، وخبث مشاعره ، إذ لا يرقّ لآلام البائسين ، ولا يقدم العون للمحتاجين مع قدرته عليه .

ومن هنا نرى الإسلام لا ينظر إلى العمل بكمه ، بل ينظر إلى ما وراءه

---

(١) سورة البقرة : ١٧٧ .

من نية ، ويعني بما يكشف عنه من طوية ، فرب إنسان يتصدق بشق نمرة ، مع إخلاص النية وصدق الإحساس ، فتكون لصدقته الهينة في نظر الناس جزاؤها العظيم ، عند من يطلع على القلوب ويعلم ما في الأنفس .

أما النموذج الثاني من نماذج الذين تستعبدهم المنفعة وتسيطر على قلوبهم وأعمالهم المادة فهو : « رَجُلٌ بَايَعَ إِمَاماً لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَاهُ ؛ إِنْ أَعْطَاهُ مَا يُرِيدُ وَفَى لَهُ ، وَإِلَّالَمْ يَفِ لَهُ . » .

وتبّاً له من فرد لئيم يوشك أن يفسد الجماعة . إن ولاءه مدخول ، وإن طاعته معللة ، فهويقيس الأمور بمقدار ما يرجع إليه من كسب مادي حقير . لا ينظر إلى مصلحة المجتمع ، ولا إلى أمن الأمة ، وإنما طغت عليه أثرته ؛ فأصبح يرى نفسه ولا شيء بعدها .

فالأصل في بيعة الإمام – وهو كل من تولى شيئاً من مسئولية الجماعة المسلمة ، سواء كان الإمام الأعظم ، أو كان نوابه ، أو عاملاً من عماله – أن تكون على أساس رعاية مصالح الدين ، وكفالة حاجات الجماعة ، وحينئذ تكون الطاعة واجبة لهذا الإمام الصالح ؛ الذي تأتمنه الأمة على القيام بواجبات دينها ودنياها .

أما هذا الفرد المادي – الذي يستحق اللعنة في هذا الحديث – فإنه لا يرى ما يراه المؤمنون ولا يعنيه شيء من مصالح الجماعة ، وإنما يبحث عن حظه هو فحسب . أما إذا أعطاه الإمام « مَايُرِيدُ » فإنه يفي له بواجبات البيعة ومقتضيات الطاعة .

ولننظر إلى دقة التعبير في قوله : « مَايُرِيدُ » . فإنه يعني أن هذا الطامع المؤثر لنفسه لا يقنع ولا يقتنع بأن يأخذ ما يستحق جزاء عمله وجهده إن كان له عمل وإنما يبتغي أن ينال ما يريد ، مما يقدره لنفسه دون مقياس ولا حد فإن لم ينل ما يبتغي من حظوظ طامعة ، انتفض وخالف وعصى . وهذا ما صوره الحديث بقوله : « وَإِلاَّ لَمْ يَفِ لَهُ » وهي جملة تبلغ الغاية في الإيجاز ، مع وفائها بالمعاني ، وتصويرها للمراد .

قال القسطلاني : فوفاءه بالبيعة لنفسه ، لا لله . وإنما استحق هذا الوعيد الشديد لكونه غش إمام المسلمين ، ومن لازم غش الإمام غش الرعية ، لما فيه من السبب إلى إثارة الفتنة [1] .

وقال الخطابي : الأصل في مبايعة الإمام أن يبايع على أن يعمل بالحق ويقيم الحدود ، ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، فمن جعل مبايعته لما يعطاه ، دون ملاحظة المقصود في الأصل ، فقد خسر خسراناً مبيناً ، ودخل في الوعيد المذكور ، وحامق به ، إن لم يتجاوز الله عنه .

ونقول : إن كان الرجل الأول قد بخل بفضل ماء على ابن السبيل ، فإن الثاني قد بخل بإخلاصه ونصحه على المسلمين ، وابتغى بهم الفتنة ، وأراد لهم الاضطراب .

ومن هنا نجد الجامع بين النموذجين -- الأول والثاني - واضحاً ؛ وهو الأثرة وحب النفس ، والغفلة عن واجبات المجتمع وحقوق الناس .

---

(١) إرشاد الساري جـ١٠ / ص٣٦٧ .

ذلك أيضاً ما نجده في النموذج الثالث وهو : « رَجُلٌ يُبَايِعُ - وْبَايَعَ كما جاء في رواية أخرى - رَجُلاً ، بِسِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ ، فَحَلَفَ بِاللهِ لَقَدْ أُعْطِيَ بِهَا كَذَا وَكَذَا . فَصَدَّقَهُ فَأَخَذَهَا . وَلَمْ يُعْطَ بِهَا » .

إنها جريمة غش ، ارتكبها مسلم مع أخيه ، وكان سلاحه فيها اليمين الكاذبة ، وكان ذلك بعد العصر ؛ وهو وقت له شرفه ؛ لما ورد في الأحاديث من اجتماع ملائكة الليل والنهار فيه . وأيضاً . [لأنه وقت ختام الأعمال ، والأمور بخواتيمها] (١) .

في هذا الوقت ؛ الذي ليس وقت مزاحمة ومنافسة ، وليس وقت ضرب في الأسواق ، استغل هذا البائع سلامة فطرة أخيه المسلم ، وتصديقه لليمين التي لا يتصور أنها فاجرة ، فحلف له بالله أن هناك من قدم له ثمناً لها كذا من المال ، فصدقه هذا المشتري ، فأخذ منه السلعة وأعطاه ما طلب . والحال أن هذا البائع الآثم - الذي حلف بالله كاذباً - لم يساومه عليها أحد بهذا الثمن الذي زعم . وإنما أراد بهذه الحيلة أن يقتطع مال أخيه المسلم . أو ليس هذا أيضاً أنانياً مؤثراً للمنفعة الزائلة ؛ غير مبال بالقيم والمبادىء والأخلاق ؟ .

أوليس مستحقاً أيضاً للعنة والغضب والعذاب ؟ .

إنهم ثلاثة أنماط من الناس . إن وجد منهم الكثير في مجتمع أماته

---

(١) إرشاد الساري .

الشقاء ، وزايلته الطمأنينة ، واختلت فيه الأوضاع .

ومن هنا كان هذا النذير الشديد ، والوعيد المقلق المخيف ، الذي يحذر كل مؤمن من أن يكون واحداً من هؤلاء المؤثرين للعاجلة على الباقية . ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [1] .

---

(١) سورة الأعلى : ١٦، ١٧ .

رجل العقيدة !

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمْ ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ ؛ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعطَ سَخِطَ . تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ . طُوبَىٰ لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله ؛ أَشْعَثُ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٌ قَدَمَاهُ ؛ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ ، كَانَ فِي الحِرَاسَةِ ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ ، كَانَ فِي السَّاقَةِ . إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ » .

أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد [1]

١ - الألفـــاظ :

تعس ، كسمع أصابة التعس - بسكون العين - وهو الهلاك والعثار والسقوط ، والشر والبعد والانحطاط .

قال في القاموس : والفعل ، كمنع ، وسمع ، أو إذا خاطبت قلت : تعست ، كمنع أي بفتح العين . وإذا حكيت قلت : تعس - أي بكسر العين ويقال رجل تاعس ، وتعس .

القطيفة : دثار مخمل ، والجمع قطائف وقطف . والمراد : الثوب

(١) رواه ابن ماجه في الصحاح .

الحسن [1] .

انتكس : أصابه النكْس - بضم النون وسكون الكاف - أو النكاس ؛ وهو عَوْد المرض بعد النقه . يقال : نُكِس - مبنياً للمجهول - فهو منكوس وانتكس فهو منتكس .

شِيكَ : بكسر الشين مبنياً للمجهول : أصابته الشوكة .

انتقش : استخرجت منه الشوكة .

طوبى : الحسنى والخير ، والخيرة . أو شجرة في الجنة . ووزنها فُعْلى .

الساقة من الجيش : مؤخره .

استهدف هذا الحديث رسم صورتين متقابلتين ، لهما وجودهما الواقعي في كل جيل ؛ صورة الرجل الذي استعبدته المطامع ولعبت به الأهواء ، وتعلق بالمتاع الزائل ، وتهالك على اللذة العاجلة ؛ فيلازمه الشقاء وتحقيق به التعاسة ؛ من حيث قدر لنفسه السعادة وأراد لها الفوز .

وصورة رجل المبدإ وصاحب العقيدة ؛ الذي يضحي في سبيلهما ، ثم لا يبالي بعد ذلك بما نال من متاع الحياة الدنيا ، ولا يحرص على أن يزاحم طلاب العاجلة في سوقها الحقير . بل يبحث دائماً عن ميدان من ميادين

---

(١) لم يرد بنص الحديث البخاري وابن ماجه قطيفة وإنما ورد خميصة وهو ثوب أسود أو أحمر له أعلامٌ . وفي الحديث « جئت إليه وعليه خميصةٌ » وإن كانت بعض الروايات أوردت القطيفة .

الجهاد ينفق فيه قوته ، ويبذل جهده ، ولا يحْنقه بعد ذلك أن الناس لم يقدّروا له جهاده ، أو لم يضعوه في المرتبة اللائقة به ؛ لأنه لم يعمل من أجلهم ، ولم يجاهد في سبيل أن ينال شيئاً مما في أيديهم ، وإنما كان جهاده خالصاً لله ، وابتغاء رضوانه .

١ - ونسأل أولاً : لماذا بدأ الحديث الشريف برسم صورة الإنسان المادي النفعي أولاً ولماذا لم يبدأ بتوضيح معالم صورة رجل العقيدة والمبدإ ؟ .

والجواب : إن الشيء الجميل إنما تتضح ألوانه الباهرة إذا قورن بالشيء القبيح ، وأن النعمة لا يعرف قدرها إلا من ابتلي قبلها بالنقمة ، والطعام لا يدرك لذاته إلا من أصابه من قبل ألم الجوع .

وهكذا بدأ الحديث التي تعس صاحبها وشقي ؛ حتى يتجلى جمال الصورة الثانية وتستولي على المشاعر . وتلك طريقة قرآنية مؤثرة ناجحة في الإقناع والإصلاح .

يقول الله سبحانه في سورة الزمر : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ . لٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ ﴾ . الآية : ٢٠ .

ويقول تعالى في سورة فصلت :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ، أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي ءَامِناً يَوْمَ الْقِيٰمَةِ ، اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

الآية : ٤٠ .

وهكذا كان البيان النبوي حريصاً على الانتفاع بمنهج الدعوة القرآني ، ناظراً إلى نسقه البديع .

٢ - ثم نسأل : ما حكمة تكرار الفعل تَعِسَ في هذه الجمل الثلاث المتعاقبة ، التي بدىء بها الحديث في بعض رواياته .

« تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمْ ، تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ » ولماذا لم يقتصر على ذكر الفعل مرة واحدة ، ويعطف على الفاعل الأول ما بعده ، فيقال : تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة .

والجواب : إن تكرار الفعل تعس في هذه الجمل الثلاث ، يفيد تأكيد التعاسة وحتمية حصولها بكل واحد من هؤلاء ، إن قلنا أن كلاً منهم يمثل لوناً من ألوان العبودية للمادة ؛ فهناك من يعبد المال الوفير ، الذي يكني عنه بالدينار ، ومن يعبد القليل ، الذي يكني عنه بالدرهم ، ومن يعبد المظهر الحسن ويحرص على الخيلاء ، وإليه الإشارة بعبد القطيفة . وفي رواية : الخميصة . وهي نوع من الأكسية أيضاً .

أو اجتماع التعاسة والشقاء على هذا الذي تعبَّد للمال ، وجعل المتاع غايته في دنياه ؛ إن قلنا أن الحديث هنا عن شخص واحد اجتمع فيه حب المال إلى حد الخضوع له ، سواء منه القليل والكثير ، وحب الزينة والخيلاء .

٣ - ثم ما مغزى التعبير بالعبودية هنا ؟ وكان الأصل أن يقال : تعس من

يحب المال ومن يحب الدرهم ومن يحب القطيفة ؟ .

والجواب : إن التعبير بالعبودية هنا استعارة تصريحية ؛ إذ شبه الرجل ، الذي يستذله الدينار والدرهم ، ويبالغ في الحرص عليه ، بالعبد ، بجامع الذل والاستكانة في كل ، واستعمل لفظ المشبه به في المشبه .

وهذه الاستعارة ذات أثر قوي في الإيحاء بالمعنى المراد ، وفي تعميق الفكرة المراد بيانها ؛ إذ أن العبودية توحي بمعاني الضعف والاستسلام والذل ، أكثر مما توحي به كلمة الحب الشديد ، أو الحرص مثلاً .

قال الشريف الرضي في بيانه لهذا الحديث :

وفي هذا الكلام مجاز ؛ وذلك أنه عليه الصلاة والسلام جعل الرجل القوي الطمع ، الشديد الجشع ، الذي يرضى بإعطاء ما سأل ، ويسخط بمنع ما يطلب ، بمنزلة العبد للدينار والدرهم والثوب والعرض ؛ لأنه بإعطاء هذه الأشياء ، يُسترق ويُملك ، ويُمتهن ويُستذل ، فجعله عليه الصلاة والسلام عبداً لها على المجاز ، وهو في الحقيقة عبداً لباذلها . ومن معروف كلامهم : فلان عبد الطمع ، وخادم الأمل ، إذا كان ذليلاً لمن وجه أمله إليه ، وضارعاً لمن علق طمعه به [1] .

أما القول بالمجاز في هذا التعبير فهو صحيح . ولكننا لا نوافق الشريف

---

(١) المعجزات النبوية للشريف الرضي : ص٣٢٠ط الحلبي .

الرضي على تأويله بأن المراد عبد لباذلها ، لأنه يحول الاستعارة إلى مجاز بالحذف ، فيكون الكلام عنده على تقدير مضاف . أي : تعكس عبد باذل الدينار . . ألخ [1] .

وفرق بعيد بين القول بالاستعارة ، والقول بمجاز الحذف ، في هذا التعبير البديع .

٤ - ثم هل يراد بقوله :

« تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ، ألخ : الإخبار أم الدعاء ؟.

ونرى أن الجملة مع احتمالها لكلا الوجهين من حيث اللغة ، تتجه في سياقها في هذا الحديث إلى الدعاء ، ونستطيع أن نستدل على ذلك بدليلين :

أولهما : إن الدعاء هنا أقوى من الإخبار ؛ لأن الدعاء من النبي ﷺ وكل نبي مجاب الدعاء . وهذا أدعى إلى تأكيد تلك الحقيقة ، وإلى الحذر من عاقبة الحرص على الحطام الزائل ، وإن أدى إلى فوات الغايات الكبرى من الحياة .

ومن هنا جاء تكرار الفعل تعس . ولو كان المراد الإخبار ، لا كتفى بذكره مرة واحدة .

---

(١) الحديث يتضمن الاستعارة والمجاز معاً فمن يملك المال والدرهم والثوب والعرض فهو عبد لها ومن لا يملك ذلك فهو عبد لباذلها وهذا أقوى وأعم وأشمل من حصره بالاستعارة فقط أو بالمجاز فقط وهذا من روائع الأدب النبوي .

ثانيهما : إن ما جاء بعد هذه الجمل الثلاث التي بدأت بقوله : تَعِسَ» يدل على الدعاء ؛ وهو قوله : « تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ » . لأن قوله : « وَأُنْتَكَسَ » دعاء عليه بمعاودة التعاسة له ، وألا يبرأ من علتها ، بل كلما برىء أو كاد أصابه . وكذلك : « وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ » لأن اقتران « لا » بالفعل الماضي « انتقش » يجعله متمحضاً للدعاء .

ومن هنا نرى أن المقصود بقوله : تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ» وما بعده من الدعاء لا الإخبار .

• - أما قوله : « وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ » فإنه يصور أبعد مدى للتعس والشقاء ، يدعو النبي ﷺ أن يحيق بهذا المادي الذليل ؛ فإنه يدعو عليه ألّا يبرأ من ألم يصيبه مهما كان هيناً ؛ فإذا أصابته الشوكة مثلاً ، فلا استطاع أن ينتزعها . فإذا كان الدعاء عليه بألا يبرأ من الألم الهين ، فما بالك بالآلام الكبار ؟! . إنها لابد نازلة به ومكدرة صفو حياته .

وهذا الجواب عن سؤال لعله يعترض في الأذهان وهو : ما جدوى الدعاء عليه بألا يبرأ من شوكة تصيبه ؟ . وما قيمته في تأكيد إصابته بالتعس والشقاء ؟ .

ثم تأتي الصورة المثالية لرجل العقيدة القويمة المضحي في سبيلها ، في قوله ﷺ : «طُوبَىٰ لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وهنا نجد كلمة « عَبْدٍ » قد جاءت مرة أخرى ، ولكن شتان بين معناها هنا ،

ومعناها في الشطر الأول من الحديث .

إن العبد هناك كان عبداً للدينار والدرهم والقطيفة ، وتلك عبودية حقيرة ؛ أن يصبح الإنسان - الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه وزوده بالعقل والعلم - عبداً لمادة حقيرة أو متاع زائل .

أما العبودية هنا فإنها تشريف للإنسان وتكريم ؛ إنها عبودية لله سبحانه خالق الإنسان والكون والحياة ، واهب النعم الظاهرة والباطنة . فعبودية الإنسان لله استمداد للقوة منه ، وتسليم للأمر إليه ، ودلالة على حسن الفهم ورجاحة العقل ، والمعرفة للجميل[1].

رتبة العبدية أشرف مرتبة للإنسان إذا كانت مضافة إلى الله تعالى فشرَّف وأكرم سيد المرسلين بقوله ﴿ فأوحى إلى عبده ﴾ وقوله سبحانه ﴿ الذي أسرى بعبده ﴾ .

ولهذا نرى عابد المال والمتاع ذليلاً متطامناً . بينما ترى عابد الله سبحانه عزيزاً متأبياً على الهوان .

ومن هنا جاء استعمال كلمة عبد ، مضاف إلى الله سبحانه ، في مقام التشريف والتكريم في القرآن . كقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[2] .

---

(١) مرتبة العبدية أعلى مرتبة للإنسان إذا كانت مضاف إلى الله تعالى ، فشرفَّ واكرم سيد المرسلين بقوله « فأوحى إلى عبدهِ » وقوله سبحانه : ﴿ سبحان الذي اسرى بعبده ﴾ .

(٢) سورة النجم : ١٠ .

وقوله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [1] .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً ﴾ [3] . وغير ذلك في القرآن الكريم .

ونلحظ أن كلمة (عبد) جاءت في الشطر الثاني من الحديث مطلقة عن التقيد ، « طُوبَىٰ لِعَبْدٍ » أما في الشطر الأول فقد أضيفت إلى الدينار والدرهم والقطيفة . فكان المفترض هنا أن يقول : طوبى لعبد ضمن عباد الله مثلاً . فما وجه هذا الإطلاق ؟ .

إننا نلمح في ذلك إيحاء بحقيقة مؤكدة ؛ وهي أن العبودية على إطلاقها لا ينبغي أن تكون إلا لله سبحانه ، فليس هناك من يتعبد له المؤمن إلا الله تعالى ، ومن هنا حرص الإسلام على تجنب كلمة عبد مضافة إلى البشر ، حتى ولو كانت لفظاً لا حقيقة وراءه .

وفي ذلك يقول النبي ﷺ « لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَلَا أَمَتِي . وَلْيَقُلْ : غُلَامِي أَوْ فَتَاتِي » .

ولنعد إلى ملامح صورة هذا المؤمن المجاهد ، المستعلي على

---

(١) سورة الأسراء : ١ .

(٢) سورة الجن : ١٩ .

(٣) سورة مريم : ٣٠ .

المتاع الحقير والجاه الزائل . إنه :

أ - « آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ». وهو إيجاز رائع مصور لغاية هذا المؤمن ولعلمه . فهو مجاهد في أي ميدان من ميادين الجهاد في سبيل الله ، متهيّيء دائماً لبذل جهده في سبيل إعلاء كلمة الله . وهل هناك أدل على هذا الاستعداد من كونه ممسكاً بعنان فرسه ؟! . وهي كناية عن اليقظة التامة والسهر الدائم ، والرباط المتواصل في ميدان التضحية .

وقد فهمنا . من هذه الجملة الموجزة تفاصيل كثيرة . فهمنا أنه مجاهد ، وأنه فارس ، وأنه مرابط ، وأنه قد حبس فرسه في سبيل الله ، فأصبحت أجراً له ، وأنه مخلص في هذا الجهاد ، لا يبتغي به شيئاً من الدنيا ، ولا يريد من ورائه رياء ولا سمعة .

ب - وهو أيضاً : جندي مجهول ، سامع مطيع ، لا يحرص على الظهور ولا يبتغي التصدر ، وإنما يؤدي واجبه نحو دينه وأمته في أي موقع كان إن وضع في مؤخرة الجيش ، رضي بذلك ولم يحرص على أن يكون في المقدمة ، وإن وضع في الميمنة رضي أيضاً وأدى واجبه . وهذا تصوير لإنكاره لذاته ومقاومته نزعات الرياء والسمعة وإخلاصه في النية .

جـ - ويصاحب تواضعه ولينه وإعراضه عما يحرص الناس عليه ، فلا

يكون له بينهم ما ينبغي لأمثاله من المجاهدين العاملين من المكانة والجاه .

لكن هذا الجندي المجهول إن حضر في المجالس لم يعرف ولم تتجه إليه الأبصار ؛ لعزوفه عن مجالس الرياء والسمعة ، وإن غاب عنهم لم يفتقد ؛ لأنه ليس بذي شأن خطير في أوضاع الحياة المادية ، وإن كان عظيماً في إيمانه وتقواه وجهاده . وإذا استأذن في الدخول على أولي الأمر لم يسرعوا في الإذن له ؛ لأنه ليس ذا اسم تتناقله الألسنة . وإن شفع شفاعة حسنة ، لم تقبل شفاعته . . لكن ذلك كله لا يعنيه إن وقع له ؛ لأنه كما قلنا : رجل عقيدة وجهاد ، لا يحرص على ما يحرص عليه غيره ، ولا يبتغي من الدنيا ما يبتغيه سواه .

ولئن كانت هذه صورة مثالية ، استطاع كثير من الصحابة رضوان الله عليهم أن يكونوا نماذج عليا لها ، وأن يرتقوا إلى آفاقها السامية .

بسم الله الرحمن الرحيم

خاتمـــــة

الحمد لله أولاً وآخراً . . . . والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين وعلى آله وصحبه ومن سار على هداه .

وبعد . . . لقد تم بتوفيق الله تعالى طبع كتاب « من روائع الأدب النبوي » المتضمن دراسة موجزة لثلاثة عشر حديثاً تصور فيه البيان النبوي وأسلوبه في الإرشاد والبيان بأسلوب رفيع لنستلهم منها الدروس التي تقودنا لأسمى الأخلاق وأكمل الصفات ولتكون لنا مشعلاً يضيء حياتنا المفعمة بالظلمات والمغريات .

إن كان الكتاب في الأصل للدارسين المتخصصين ، ولكنه لا يخلو من نفع عام للمسلمين للوقوف على روائع ما جاء به سيد المرسلين الذي أوتيَ جوامع الكلم ليكون منهاجاً للبشرية ليغرفوا من خيراته ويسيروا على هداه .

وصلى الله على سيدنا محمد الذي جاء رحمة مهداة للخلق جميعاً .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين .

خادم العلم

عبد الله إبراهيم الأنصاري

مدير إدارة احياء التراث الإسلامي

الدوحة قطر

١٤٠٤هـ ١٩٨٤م

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
العاقل والأحمق	٥
أقربكم من رسول الله	١١
الجنة تحت ظلال السيوف	١٩
بعضهم يهلك بعضاً	٢٨
حق الحياء	٣٧
الإنسان يبيع نفسه	٤٥
حمى الله محارمه	٥٦
القلوب والفتن	٦٦
حق الله على عباده	٧٥
النعم المضيعة	٩١
من أدب الدعاء	١٠٠
لايكلمهم الله !	١١٦
رجل العقيدة	١٢٥
خاتمة	١٣٦

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية

١٢٩ لسنة ١٤٠٤هـ الموافق ١٩٨٤م

طبع في المطبعة الأهلية